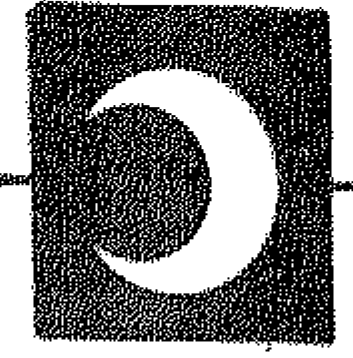
كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الأزهر بين السياسة وحرية الفكر

الدكتور محمد رجب البيومى

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

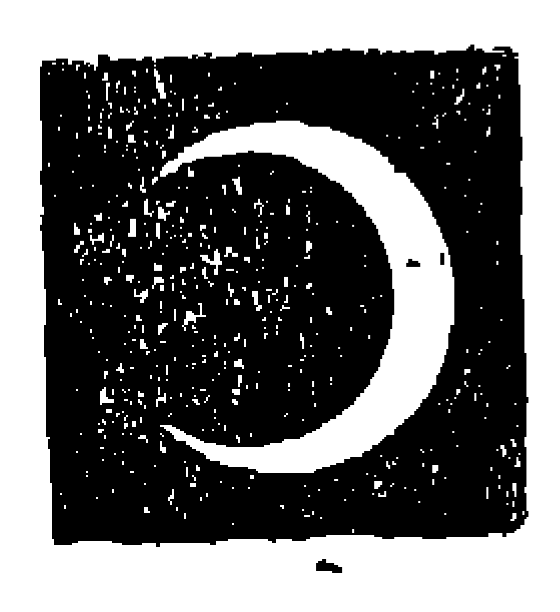
KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٧ – جمادى الاولى ١٤٠٣ – مارس ١٩٨٣
(No. 387 — March 1983)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي . وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادي وعشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـانة سميحة حسـنين

الأزهر

بين السياسة وحرية الفكر

■

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

■

دار الهلال

تقـــديم

من قرابة نصف قرن ، ونحن نقـرأ فى الصـــحف عن ضرورة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، فتعقد لجان ، وتعد اقتراحات لانجاز هذا الاحتفال الرائع ، ثم يمضى الوقت دون تنفيذ ، ولكننا اليوم نرى دعوة جادة صـــادقة لهذا الاحتفال ، ونرى اهتماما مشهودا ، يؤذن بالجدية المثمرة ، لذلك أردت تسجيل المآثر التى سجلها التاريخ ونســيها الناس ، فتحدثت فى ايجاز عن نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ، لأن قوما تابعوا عن عمد الارجاف المغـرض بالأزهر ، فحاولوا أن يطمسوا زعامته السياسية الواضحة لحاجات فى نفوسهم ، وتعدوا ذلك الى رميه ظلما بمناهضته الفكر الحر ناسين أن الأحرار من زعماء الأمة قد تربوا فى مهده ، ونشئوا بين أحضانه ، وفى هذه الصـــفحات من روائع أعمالهم ما يقدم الدليل الناهض والبرهان الصريح ، أما حرية الفكر الصحيح فقد كان الأزهر بأعلامه الكبـــار موئلها المانع ، وحصنها الحامى ، ومن حق الأزهر أن ينكر جريئا ما يراه باطلا بجانب رسالة الاسلام التى يقـوم على حفظها ، ولكن هذا الحق قد وجد من أعداء الاســـلام من يفسره على غير وجهه ، فجاء هذا الكتاب ليدعو الى الحـق بالحكمة الصادقة ، والأثر الشاهد وليعلن فى وضوح كيف

كان الأزهر الشريف لسان الصدق الصريح ، وكيف تجرأ مناوئوه على الحقيقة حين وصفوه بما ليس فيه ، بل كيف كانوا أعداء الحقيقة وهم يتظاهرون بالدفاع عنها مرائين ، واذا استطاع هذا الكتاب أن يجلو موقف الازهر بين السياسة وحرية الفكر بما لا يدع مجالا للبس ·· فقد شارك مشاركة مخلصة فى الاحتفال بهذا العيد المجيد ··

د · محمد رجب البيومى

— ١ —

ازدهر مجد الأزهر بعد انتهاء الدولة الأيوبية ، حيث رأى الظاهر بيبرس أن يعيد الى المسجد الكبير دوره الدينى والثقافى من جديد ، فأقيمت به الصلوات ، وانتظمت الدروس ولا ننكر أن المدارس المجاورة بالمساجد القاهرية كانت تشاركه حينئذ فى دوره المجيد ، اذ أن حلقات العلم قد امتدت فى أكثر بيوت الله ، لوفرة من نبغوا من العلماء، مصريين ووافدين ، حيث كانت مصر بعد سقوط الخلافة ببغداد شرقا ، وكارثة الأندلس غربا مصبا زاخرا لأمواج تتدافع الى الكنانة ناشدة الامن والنجاة ، وفى هؤلاء من له فى العلم قدم ذات رسوخ ، فرأوا فى مصر موطنا رحيما يسبل عليهم رعايته وتقديره اذ أن الاسلام وطن حقيقى لكل مسلم ، ومصر كعبة الاسلام الحاضنة لأبنائه على مدى العصور ، وبازدهار الحركة العلمية فى العصر المملوكى كثرت المؤلفات المستوعبة فى كل فن ، والموسوعات الجامعة لكل علم ، ولست فى هذه الصفحات مؤرخا للنهضة العلمية فى زمن المماليك (١) فلذلك مجال شاسع برز فيه نفر من كبار الباحثين ، ولكنى أتحدث عن بطولة

---

(١) المقصود المماليك البحرية والبرجية ، أى التركمان والجركس ، أما مماليك العثمانى فسيجىء الحديث عن عهدهم .

نفر من كرام العلمـاء حملوا أمانة الحق ، اذ جهروا بالصدق ، وكافحوا الباطل مكافحة من يعلم دعوة الاسلام الصريحة للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فكانوا قادة شعوب ، ومصابيح ليل •

ونحن نعلم أن الحاكمين من المماليك كانوا كل شيء في الدولة ، وكان أتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند لايتقيدون بدستور يلزم ويلجم ، اذ يكفى أن يكون الأمير موضـع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر ، ويفـرض الاتاوة كما يشاء ، بل ان تهب المتاجر ، وسلب الأموال ، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل مايجدونه من مدخرات ، كان ذلك كله يمضي طبيعياً دون اعتراض ، وكأنه أمر مشروع ! أقول دون اعتراض من السلطان ومن بيدهم الأمر ، اذ أنهم فى أكثـر الأمور كانوا محـرضين موجهين ! فكيف يحرصون بعد ذلك على احقـاق الحـق ، ونصرة المظلومين ؟ فى هذا الجو القاتم الخانق كان رسالة علماء الدين فى احقاق الحق تواجه من الصعوبات القاسية أشق ما تواجه رسالة حق مجردة من السلاح ! وكان العالم فدائيا بالمعنى الدقيق ، لأنه يصدع بأمر الله بين جبـابرة مارقين •

نعرف جيدا أن للعصر المملوكي في مصر حسناته ، فهو الذى دفع التتار عن بلاد الاسلام بعامة اذ أنزل بهم أقوى الهزائم الماحقة بعد أن زحفوا كالسيول السـاحقة ، تدمر ما تأتى عليه وبعد أن حولوا ممالك الشرق أطلالا تنعق فى آفاقها الغربان والبوم،كما نعرف أن أبطال هذا العصر قد أنهوا الهجوم الصليبى ، وقطعوا دابره قطعاً لا رجعة بعده فأعادوا الى البلاد استقلالها الزاهر ، كما نعـرف أن من

الســـلاطين من رصد الأوقاف الكثيرة على وجـوه البـر والاحسان وتشجيع الدروس الدينية وبناء المساجد واحياء العلوم والآداب ! ولكن ذلك كله يضيع سدى أمام احتقار الحاكمين لأفراد الشعب اذ يغصبون أموالهم كما يشاءون دون اكتراث ، كما لا يحـــاولون اشراكهم فى رأى ، أو الاستماع الى نصيحة مخلصة يبديها صـــادق غيور ، فاذا قاموا بتعمير مسجد أو بناء مستشفى فانهم لا يفعلون ذلك لأنه حق واجب بل ليكونوا متفضلين محســنين فحسب .
وفرق بعيد بين أن يتعلم الانسان لأن من حقه الطبيعي أن يتعلم فى وطنه ، وأن يعالج المريض لأن من حقه أن يعالج ، وبين أن يتعلم ويعالج احسانا وتفضلا من الحاكمين ، هذا الى غير ما ابتلى به الشعب من فرض الضرائب الفـادحة ، وانتشار الأوبئة الماحقة ، وجفاف النيل فى سنوات تتعاقب فتحدث من المجاعات الناجعة ما تقشعر لهوله الأبدان حين تقرأ ما دونه المؤرخون من فظائع القحط ، وأهوال الجوع ، وانتشار الغلاء ، والشر يدفع الى الشر ، فقد جلبت هـذه المجاعات مختلف الأوبئة القاتلة ، فانتشر الطاعون ، ودفن المئات من الموتى فى اليوم الواحد ! وتجـرأ العصـــاة من شذاذ العربان وقطاع الطرق ، فنهبوا ما وقعت أيديهم عليه من القوت الضرورى لأناس يكتفى أحدهم بالكسرة اليابسة فى اليوم الطويل !! والسلاطين والأمراء من وراء ذلك كله يبطشون بلا وازع ويحكمون بلا قانون ، فاذا اســـتطاع علماء الأزهر من المدرسين والقضاة أن يقفوا أمام الطغيان مطالبين بانصاف الرعية فهم أبطال مناضلون .

وقد كان من حظ العلماء فى مطلع هذا العصر أن يظهر بينهم رائد مثالى يصدع بالحق وهو العز بن عبد الســلام

وتاريخه السياسى أنبه من أن يدل عليه وقد بسطت طرفا منه فى غير هذا المكان (١) ، اذ قــدر عليــه أن يحمل راية الحق فى وجوه مخالفيه مهما أفزع سلطانهم ، وامتد جبروتهم ، كما قدر عليه أن يعيش حقبة حرجة من أصعب الحقب فى تاريخ الاسلام ! وأى حقبــة أشد هولا من زمن الهجوم التترى والزحف الصليبى ، والانحدار الاندلسى، ولعل مما أفزعه أن يعيش فترة فى دمشق ليرى صــــاحب أمرها يصالح الصليبيين ، ويســتنصر بهم على أخيه الملك المسلم ، ثم يحدق بعينيه فيشهد جنود الفرنجة يشترون السلاح من مسلمى دمشق ليحاربوا به اخوانهم فى الدين!! أيجوز أن يسكت عن هذه المآثم كما سكت سواه ؟ انه ليخطب فى المسجد منددا بمن يتخذ أعــداء دينه أولياء ، ومحــــــرما بيع السلاح لصليبى يحــــارب الاسلام . وكانت النفوس هائجة ، والأعصــــاب متوترة ، فأحدث ضجة أفزعت الحاكم الضال ، وحاول أن يبطش بمن ندد به ، ولكن باطله السافر كان أعجــز من أن يقف فى وجه العز داعية الحق ، وكل ما استطاعه أن حمله على الهجرة الى مصر ، فرحل اليها مستريح النفس ليواصــل دعوته الحرة ، وليصــــطدم بأقوى سلطان عرفه العصر المملوكى وهو الظاهر بيبرس اذ خالف أمره حين هم بفرض الضرائب على الشعب الكادح ، وجواريه ونساؤه وغلمانه وأشــياعه من الأمراء والجند يملكون من قلائد الذهب وحلى الفضــة ما يكفى بعضه لاعداد الجيش وتهيئة الســلاح ، وانتصر الرجل بعون الله فى أولى معاركه انتصارا دفعه الى معارك مماثلة كللت بتوفيق الله ! وضربت للعلماء مثلا باهــرا فى

---

(١) علماء فى وجه الطغيان للمؤلف (٦٤ ــ ٧٠) .

العزة الاسلامية ، والحرية المثالية حتى رأينـــا من هؤلاء الاماثل من ينهجون نهجه في شموخ واعتزاز ، ولا يتسع المجال للاحاطة بمواقفهم البارزه ، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة التى تصور دور علماء الدين فى مجابهه الطغيان ، ولن نعتمد على روايات ضعيفة،أو أخبار مرجوحة،ولكننا سنتدل بما سطره مؤرخو العصر مجمعين على حدوثه دون ان يشذ واحد منهم بتشـــكيك يوقع بعض الريب ! واذا اجمع المؤرخون على تأييد هذه الأحداث ، فذلك ما يســوء قوما يؤذيهم أبلغ الايذاء أن تذاع مآثر العلماء فيخضـعون الرءوس محزونين .

— ٢ —

مات العز بن عبد السلام فنهض بعده من كبار العلمـاء من يحذو حذوه بل من يعيد دوره فى معضلات أيامه بأعيانها فقد ظن الظاهر بيبرس أن انتقال العز بن عبد السـلام الى جوار ربه ، يبيح له أن يســـتحل ما حرمه العز حين نطق باسم الشريعة الاسلامية فاشتد فى جمع الضرائب والمكوس حتى جرد كثيرا من التجار من أموالهم ، وسـلط أعوانه من العسكر يغصبون ويسلبون دون مراعاة لوجه العدالة ، بحجة أن الدولة ذات أعداء وأنها تتهيأ لحرب تتطلب السـلاح ، وقد زاد هؤلاء الناهبون بغيا على بغى حين سلطوا سياطهم وأدوات تعذيبهم على الناس كى يستخلصوا ما يزعمون أنه مستتر لديهم من الأموال فاضطر الامام الورع محيى الدين النووى أن يكتب الى السلطان بما شاهده من ظلم الجباة وارهاق الناس وعسف العمال من رجال السلطان ، مقررا أن ما أمر به السلطان جنوده عسف وظلم ، وأن الدوله لن تصان بغير العدالة والانصاف ، وكان الظاهر يخطىء وجهة

نظره الى النووى اذ ظنه شابا يتطلب حسن السمعة بين الناس بما يواجه به السلطان ، وأن العز ذو أشياع يسيرون خلفه ، ويبذلون أرواحهم فداءه ٠

أما محيى الدين فقد نجم من الأرض فجأة ، وعلى الظاهر أن يأخذ على يديه قبل أن يصير ذا شأن ! ذلك ما ظنه الظاهر فلجأ الى التهديد ورد على الشيخ بكتاب يحمل الانكار والتوبيخ ، وأنه يتدخل فيما لا يعنيه حين يدافع عن قوم بخلاء أشحة لا يعرفون سبيلا للخير ، وبالغ السلطان في تهديده موعدا منذرا ، ومخوفا من بطشه الكاسح اذ لا يسمح لأحد أن يقف في وجهه وهو صاحب الأمر والنهى فى مصر والشام ، وقد ظن أن المسألة قد وقفت عند هذا الحد ، وأن النووى سيحبس لسانه فلا ينطق ، ويمنع قلمه فلا يكتب ، ولكنه ينتظر أمدا غير بعيد فيجد محيى الدين النووى يرسل له الرد الواضح الصريح دون تهيب اذ يقول فى صراحة واعتداد ٠

« أما تهديد الرعية بسبب نصحيتنا ، وتهديد طائفة من العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين للسلطان ولهم ! ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه مايلام عليه ، وأما أنا فى نفسي فلا يضيرنى التهديد ، ولا أكثر منه . ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فانى أعتقد أن ذلك واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، فانما هذه الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخشى فى الله لومة لائم » ٠

جاء الخطاب الى الظاهر ، فأوقعه فى حيرة لأنه يعتقد فى اعماقه أن كلام الرجل صائب فهو يعرف تمام المعرفة بطش الجباة وقسوتهم ، وتأتيه أنباء السلب والتعذيب فيصم أذنيه عنها ! وقد قام النووى بواجب النصيحة الاسلامية منبعا أمر ربه الذى يسأله السلطان النصر،ويترجى تأييده فى حوالك الخطوب . وكان فى السلطان استجابة للخير فجمع الجباة وأشار عليهم بالرفق والملاينة ، وحذرهم غضب العلماء ، ولكن الحاجة ـ بعد ـ الى المال لا تنفد ، فالسلطان يقيم المشروعات ويعطى الهبات ، ويعيش أتباعه فى بذخ مفرط ، ولابد من فرض الضرائب دائما ، بل لابد من سلب المتاجر لأن الضرائب حق اذا حددت بقدر ، وقيدت بزمن ، أما اذا كانت عملا مستمرا لا تحديد معه في قدر أو زمن فهى نهب صريح ، وقد انتهز السلطان بادرة سفره الى تأديب بعض العصاة ، ومحاربة من هجموا على أطراف الدولة من الأعداء فأعلن أنه فى حاجة الى المال ، واستفتى بعض العلماء فى ذلك بحجة أنه ذاهب الى نصرة الاسلام فأجابوه . ولكن محيى الدين يمتنع من الفتوى ، فتسرع الظاهر وعقد اجتماعا عاجلا لأصحاب الوجاهة من الأمراء والقضاة ليناقش النووى فى امتناعه ، ليظهره فى صورة المخذل عن قتال الأعداء ، ومجالدة الكفار ، وانعقد الجمع الحاشد وصاح السلطان بالشيخ : لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كما أجاز ذلك زملاؤك الأئمة والقضاة ؟

فدهش السلطان دهشة مفاجئة حين سمع النووى يقول : كلنا نعرف أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية

بصيب من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالثياب الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجـــوارى بثيابهن دون الحلى ، فهنا ـ فقط ـ أجيز لك أخذ المال من الناس !

صرخ الظاهر فى انفعال : أخرج من بلدى اذ لا يجوز أن تساكننى فى دمشق فقال النووى : ومن أدراك أنى سأقبل المقام لديك لابد من الرحيل ثم انسحب من المجلس فسـار وراءه نفر من العلماء ، ووجم الســـلطان حين نظـر قوما يسيرون مع الشيخ ! فتذكر العز بن عبد الســلام ، وآثر الانقياد .

ـ ٣ ـ

لا زلنا فى العصر المملوكى نرسم بعض الأدوار المجيـدة لعلماء الاسلام من رجال القضاء ومدرسى المساجد ، اذ ليس الأزهر وحده حينئذ هو المسجد الجامع ـ وأمامنا الآن فقيه شجاع من طراز العز والنووى هو العلامة الفقيه القـاضى الورع ابن دقيق العيد ، وقد نشـــأ عزوفا عن المناصـب البراقة ، مؤثرا للبحث العلمى وحده : ولكن تهالك الأمراء عن التدخل فى شئون القضاة ، وخضوع بعض الضـــعفاء لمآربهم الظالمة دفعه الى أن يقبل منصب (قاضى القضاة) وأن يجمع نوابه من قضاة الأقاليم ليحذرهم أن يستجيبوا لغير ما يؤذن الحق ، وقد كتب منشورا دوريا ، يحرم أن يحيد القاضى قيد شـعرة عن حق الله ، ثم جاء الدور عليه شخصيا حين وجد نائب السلطنة الأمير (منكوتمر) يغتصب الأموال بغيا دون حق ، ويحتال لذلك بما لا يخفى على مثل ابن دقيق العيد ، وقد رفعت اليه قضية خلاصتها أن تاجرا كبيرا من التجـــار مات وترك وراءه ثروة كبيرة ، فـرأى

سنكوتمر أن يدعى أن لهذا التاجر شقيقا عينه بنفسه ليكون الوارث فى الظاهر ، ثم ليستولى الأمير على الميراث من بعد ، لقاء مكافأة يسيرة ! ورفع الأمر الى ابن دقيق العيد ظانا ان الحيلة ستنطلى عليه ، واختار أحد كبار خاصيته ليبلغ القاضى رغبته فى التعجيل دون تأجيل ، وجاء الرسول يبالغ فى التطلف ، وليبلغ ابن دقيق أن الأمير (منكوتمر) مهتم بانصاف الأخ الشقيق ، وأنه يشهد بنفسه أنه أخوه وعلى القاضى أن يثبت هذه الأخوة ليأخذ كل ذى حق حقه ! ولكن ابن دقيق قال للرسول : وما قيمة شهادة (منكوتمر) فقال مأخوذا : هو عندنا وعندكم عدل يا مولاى ؟ فضحك ابن دقيق مستهزئا وقال سبحان الله ! هو عندكم عدل !! ثم أنشد قول الشاعر :

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند!

وقال أبلغ الأمير أن ذلك احتيال !! ولكن الأمير طامع ، والميراث كبير ، فعاود الوساطة ملحا ، فجمع ابن دقيق قضاة القاهرة ، وقال : أشهدكم أنى عزلت نفسى باسم الله . قولوا للسلطان يول غيرى ! ولزم بيته وانتشر الخبر بين الناس ، ووصلت الضجة الى السلطان فجمع نائبه موبخا وقال : لقد تسببت فى سوء السمعة ! ماذا أقول للناس وقد اعتزل ابن دقيق ! ثم أرسل اليه محلفا أن يعود الى عمله ، وليس لنائبه معه أى كلام !

وتم ما أراد ابن دقيق ، فرجع نائبه الى القضاء ! وأرسل الى جميع نوابه فى ديار مصر ألا يستجيبوا الى غير الحق ، وأنه وقف موقفه من الأمير ليضرب لهم المثل ، وعليهم أن يعرفوا أن المنصب زائل ، وأن الله مطلع ، وأن متاع الحياة

الدنيا قليل ! وأن الآخرة هي دار القرار ٠٠ وكانت رجة عاليه الدوى بين الناس !!

ـ ٤ ـ

أما ثورة قضاة المذاهب جميعا على الحاكم ، فتتمثل في قضية ذات رنين ، شغلت المجتمع المصرى أمدا طويلا وندخل فيها السلطان الرهيب (قانصوه الغـــورى) تدخلا غير مشروع اذ حكم بنفسه بما يخالف فتوى العلماء ، ثم بادر بالتنفيذ ظالما غير منصف ، وذلك لا ينقص قدر هؤلاء الذى عارضوه وجابهوه ، ثم لم يجدوا الاستجابة من جبار يركب رأسه دون استحياء ٠

لقد نمى الى (صاحب الحجاب) وكان يقوم بمهمة مدير الأمن ، أن رجلا من الناس يأتى ببيت صديقه في غيبته ، وأنه على صلة منكرة بزوجته ، فراقب الحـاجب المنزل ، وداهم العاشقين وما زال بهما ضربا وتبريحـا حتى أقـرا بالفاحشـــة ، فحملهما على حمارين ـ كالعادة حينئـذ في التجريس ـ وطيف بهما على الناس ووراءهما حشـــد من الرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس ، وفرض عليهما ضريبة فادحة أدياها ، وكان من المنتظر أن يقف الأمر عند هـــذا الحد ، ولكن السلطان الغورى علم بما كان ، فحول المسألة الى القضاء ! ونظر القـاضي المختص ، وناقش المتهمـين ، فعرف أن اقرارهما كان بالاكراه تحت سياط ظالمة ، وعلى ذلك فلا حد ، ثم أخذ رأى زملائه فأجابوا جميعـــا بأن الرجوع في الاقرار يسقط حد الزنا ،ولكن قانصوه الغورى لأمر فى نفسه صمم على أن يرجم المتهمان ، ودعا علماء مصر وقضاتها الى مجلس خطير تصدره بنفسه ! وكان العلمـاء على بينه من مكيدته، فأجمعوا على أن يقولوا كلمة حق دون مبالاة ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، وهو

مع سنه العالية ذو رسوخ وايمان وعـــزيمة ، ولم يشـأ الغورى ان يترك النقاش حرا يجرى على سنن مستقيم فيدلى كل عالم برأيه دون ارهاب ، ولكنه تنمر محتدا ، وصاح بشيخ الاسلام فى مبدأ الاجتماع يقول غاضبا :

ـ كيف يا شـــيخ زكريا ، يضـــبط رجل فى منزل عشيقته ، ويقر بالجــريمة ، ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع ؟

فسكت زكريا الأنصارى كمن يريد أن يهدىء السلطان قليلا حتى يراجع نفسه فلا يشتط ، فقلب الغورى عينيه فى الحاضرين ، وقال لهم ماذا ترون ؟ فأنبرى أحد القضاة يقول : للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله يراجع المعترفين فيقول لأحدهم : لعلك كـذا ، ولعلك كذا ، ليفسح السبيل ويدرأ الحد بالشبهات !

فاحمر وجه الغورى ، وتوقدت عيناه غضـــبا ، وصرخ يقول : أنا ولى الأمر ، ولى الحق فى اصدار الحكم بالرجم ، وليس لكم أن تقفوا أمامى باسم الدين !

وظن الحاكم المستبد أن قوله هذا سيقطع كل اعتراض ولكنه فوجىء بمن يصيح به من القضاة قائلا : لك الحق أن تصدر الحكم اذا كان متفقا مع الشرع ، فان أصررت على رجم المتهمين ، فأنت مذنب وعليك ديتهما .

ارتج المجلس ، وهاج الأمراء من المـــماليك ، وتطـور أحمقهم فهجم على القاضى الجرىء ، وسحبه من ثيابه وأجبره على الخروج ، وأزبد السلطان مرعدا ، واتجه بحديثه الى شيخ الاسلام زكريا الأنصارى يقول له : ما رأيك أيهـا الشيخ .

فقال زكريا : الرجوع بعد الاعتراف يســـقط الحق ،

وجمهور الأئمة على ذلك دون خلاف ٠

فتبسم الغورى تبسم المستهزىء وصاح متهكما ! أهذا عا يرضي ذمتك يا شيخ الاسلام ، فقال الشيخ زكريا في قوة ، ويرضى ذمم العلماء جميعا ، وأولهم امام المذهب وساكن مصر الشافعي رضي الله عنه ، وذمته فوق التجريح٠

لم يتحمل الغورى سطوة الحق ، وخرج عابسا ، ودعا بالمتهمين فأمر برجمهما وأصدر قراره بتشريد القضاة الى أماكن نائية مع الاعتداء بالضرب على من جهر بالحق ، فاشتعل غضب العامة ، ولزم الفقهاء بيوتهم متذمرين ! وكانت قطيعة واجبة أمام متعسف يركب هواه ، ويتدخل في القضاء دون مبرر ! ولم تمض أيام حتى فوجىء بهجوم خصمه السلطان سليم الأول على مملكته فهرع للدفاع ! ودارت الدائرة عليه فلاقى مصرعه ، حين تلاقى ظالم جبار بظالم جبار في مرج دابق ! ولكل شر انتهاء ٠

هذه صفحة من بطولات العلماء في أسود عهود الاستبداد ، ولها نظائر كثيرة يجدها القارىء فيما يلي هذا الباب ٠

فى العصر العثمانى

زاد انحدار الأحوال سوءا فى العصر العثمانى ، لأن السلطة فى العصر المملوكى كانت فى يد طائفة واحدة هى المماليك ، ولكنها صارت فى يد فريقين متنابذين فى العصر العثمانى ، هما سلطة تركيا ويمثلها الوالى المختـــار من الآستانة وسلطة المماليك ، وهم ينظرون بعـين الكراهيـة والحقد الى الوالى ، ويحاولون البطش به اذا أنســـوا من الدولة العثمانية انصرافا عن الشئون المصرية اذ كان حالها كما وصفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد بقوله :

« وبلغ الاضطراب معظمه فى أوائل القرن الثامن عشر، اذ كانت الدولة العثمانية تعالج ما أصابها فى اســـمها وكيانها ، وتتلفت الى عدو مخيف وهو روسيا هبط عليها من شمال البحر الاسود . فى حين كانت النمسا تطعـن جانبها من ناحية الغرب ، فكانت لا تستطيع أن تمد يدا الى ممثلها فى مصر ، لتنصره على الأمراء المماليك الذين ظلوا مع مضى السنين والقرون لا ينسون ذكرى موقعة (مرج دابق) ولا يغيب عن أذهانهم أن سليما العثمانى قد عدا على دولة أسلافهم المجيدة فاغتصبها ونقل عنها ما كان لها من عـز وعظمة ، وأصارها الى ما صارت اليه من التبعية والصغار ، فكانوا اذا رأوا ضعف الدولة واشتغالها بما أصـــابها فى

أوربا لا يتركون الفرصة، ولايدعونهاتفلت من أيديهم بغير أن يستعيدوا شيئا من الامر الذى سلب من أسلافهم منذ قرنين » .

هذا النزاع بين ممثلى الدولة العثمانية وأمراء المماليك . كان ذا أثر سيىء على الشعب ، لان الوالى اذا اشتد أزره بمعاونة من قد ترسلهم تركيا من جنود الحملات التأديبيه لأمراء المماليك ! هذا الوالى ينتهز موضع قوته فيحاول الاثراء بما يفرضه من الضرائب والمكوس ، وقد تأتيه أوامر سلطانية من الآستانة تدعو ، الى جمع الأموال فينتهز الفرصة للغضب غير المشروع ليرضى دولته بقسط مما يجمع مدخرا القسط الكبير لنفسه ، لأنه يعرف جيدا أن مدته فى مصر لا تتجاوز العام أو العامين ولابد أن ينقلب الى أهله ذا ثراء بما سلب ، اذ كان من سياسة الدولة ألا تهمل واليا أكثر من أمد محدود كيلا يشتد قوته فيحاول الاستقلال بالبلاد ، أما أمراء المماليك فيفتحون عيونهم جيدا الى مقدرة الوالى فان أنسوا منه الضعف ، وتراخت الدولة عن اسعافه لما يدهمها من الأحداث فى أوربا فانهم يستأسدون ويعلنون جبروتهم ، ويرسلون عيونهم الى التجار وأصحاب الثراء متلمسين من تظهر عليه آثار النعمة كى يسلبوه كل خير ! وتلك حال محزنة حقا ، لأنها تجعل الشعب الأعزل بين شقى الرحى . وقد تكالب عليه الشر من شمال ويمين ! ولكنه مع ذلك لم يهن ولم يتضضع ، ووجد فى علماء الأزهر من أخذوا بناصره ، ومن قادوا غضباته المتوالية فعبروا عن سخطه فى مواجهة الوالى تارة وفى مغاضبته الأمراء تارة أخرى ، وتاريخ الجبرتى ملىء بأحداث رائعة تكتب بالذهب حين تسجل كفاح علماء الأزهر فى هذا الليل

الحالك ذى الارهاب! ومع أن كتاب الجبرتى قد تعددت طبعاته وانتشرت نسخة فى الشرق وترجماته فى الغرب فان من يكتبون تاريخ مصر بعين الهوى المغرض يحاولون أن ينسوا كل ما ذكره هذا المؤرخ المنصف عن كفاح العلماء فى وجه الطغيان ، وكأنهم يتشعرون راحة نفسيه حين ينتقصون الشعب ويرونه بمعزل عن أحداث عصره، بل يسرهم كل السرور أن يعلنوا أنه كان صاغرا مستكينا يرحب بالضيم ، ولا يرى وجها للمطالبة بحقه المشروع فى العدالة والانصـــاف ، ومنهم من يفترض الفرض الكاذب ويراه حقا صريحا يحاول تعليله بأنك مماثل ، وذلك حين يزعم هؤلاء المغرضون أن طبيعة الشعب المصرى أن يستكين لانه تعود الذلة منذ أجيال ، ولأن دينه يفرض عليه الرضا بالقدر خيره وشره ، وذلك باطـل صريح ، لأن الشـــعب المصرى فى حكم الطولونيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك لم ينظر لاحاكم على أنه دخيل أجنبى ، ولكنــه نظـر اليه باعتباره مسلما يحكم شعبا مسلما فرضى به ! بدليل أنه أعلن الثورة الهائجة على نابليـون فيما بعد وعده دخيـــلا أجنبيا ، طاعة له ، بل أن نابليون قد عرف ذلك حق المعرفة وتظاهر بالاسلام وأدعى اعتناقه ليسكت الغضب الثائر ، فلم ينخدع الشعب اليقظ بشىء مما كان ! أما الرضـــا بالقدر دون أخذ للأهبه وتحفز للكفاح فليس من الاســلام فى شىء ، وتاريخ هذا الدين منذ ظهر نوره فى مكة سلسلة من النضال الباسل ، والوقوف أمام الطغاة ، حتى استطاع أبناء الحنيفة أن يسيطروا على القارات الثلاث فى أقل من قرن واحد ! فكيف ـ بالله ـ يقال انه دين تخاذل وانكسار الا اذا أعمى الغرض العيون فضلت طريق الصواب .

ويطـــول القول لو حاولنا أن نتتبع ما ذكره ابن اياس والجبرتي من بطولات العلماء أمام الطغيان فلابد من اختيار رقائع ذات دلالة بارزة ، لتكون بشـجاعتها النادرة مثـلا لأمثلة كثيرة ! وسنلم بنماذج من كفاح العلماء للفريقين المتنابذين فريق الأمراء وفريق الولاة ، ليكون الدليل صريحا ملموسا لا يقبل أدنى مراء .

ونختار الشيخ أحمد الدردير العالم الورع الشـجاع وشيخ شيوخ المالكية فى عصره وصاحب الحواشي الشائعة بين الازهريين ، لنكتب صفحة من كفاحه المتواصل ، اذحمل أمانة الجهاد ، وقاد الأمة الى حقها دون نكوص ، ولم يخضع لعوامل الاغراء من قوم يظنون المال والمنصب مما يحرص عليهما ورثة الأنبياء الحقيقيون ، ولكن الحقيقة السـافرة قد بددت هذه الظنون .

ذكر عبد الرحمن الجبرتى فى أحداث شهر جمادى الأولى من سنة ١١٩١ هـ (١) أن بعض الأوقاف الخاصـة بطلبـة العلم بالأزهـر من فريق المغـاربة الذين تركوا بلادهـم روسعتهم مصر بأوقافها ومسـاجدها ودورها وعلمائها . بعض هذه الأوقاف كانت هدف اعتداء ظالم من أحد الأمراء الكبار ويدعى يوسف بك ، فاضطر المستحقون أن يلجئوا الى القضاء فحكم لهم بما يستحقون ، وعز على الامير الظالم أن يمتثل لأمر القضاء فرفض الحكم ، وزاد فدفع شـيخ المغاربة الى السجن جزاء مطالبته بالحق ، وفوجىء الطلاب بما نوى الأمير من شر ، فاتجهوا الى أسـتاذهم الدردير ، فلم يظن أن الأمير جاد فى تهديده ، وكتب اليه خطابا رقيقا يسأله أن يترك الطالب دون اعتقال ، وما كاد خطاب الشيخ

---

(١) الجزء الثانى من تاريخ الجبرتى ص ٨ .

يصــل الى الأمير على يدى طالبين من طلابه ، حتى هاج وزمجر ، وأمر بالقبض على الطالبين اللذين يحملان الرسالة وزجرهما زجرا عنيفا وفاه بما لا يليق ·

قال الجبرتى « ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع . فاجتمعوا فى الصباح وأبطلــوا الآذان والدروس والصلوات · وأوصدوا أبواب الجامع · وجلس المشايخ بالقبلة القديمه ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق متاجرهم » ·

اضطر الأمراء الى أن يحســموا الشر حين رأوا علماء الأزهر يلتفون حول الدردير ويقودون حركة مقاومة ناجحة فأرسلوا الى يوسف بك فأطلق المسجونين ، ونادوا بالأمان، انفتح الحوانيت ، ولكن شغبا تجدد بين الطــلاب وبعض الخصوم ، فقامت معركة دموية ضـــاعت فيها أرواح من الفريقين ، واستفحل الشر ، وزاد الهرج ، فتزعم الدردير ثورة الانتقام ووقف وراءه التجار وطوائف البلد ، فخاف الأمراء أن تصل الأنباء الى السلطان وأن يعجل بالانتقام ، واجتمعوا للتشاور فأرســلوا أحد كبرائهم الى الشــيخ السادات فحذرهم من مواجهة العلماء، ودعا بمن يرسله إلى الثائرين كى يحضروا من يمثلهم ، والشــيخ الســادات ضامن كفيل ، وبعد رد وأخذ اجتمع الفريقان فى مسجد المؤيد ، وخضع الأمراء الى ما طلبه الشــيخ الدردير من الرجوع الى الحق ، وأن يبتعد أتباع الأمراء عن المرور بحى الأزهر اذ هم مبغوضون منبوذون ، وكتبوا كتبا تشــهد بالصلح وعدم الاعتداء وانتهت المسألة بانتصار الدردير ·

يقول الأستاذ محمود الشرقاوى تعليقــا على هــذا الموقف ·

« لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك، ولا مع تابع من أتباع المماليك ، ولم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعا فى هذه الفترة من تاريخ مصر ، أن يرد مبعوثا بعث به يوسف بك ، أو أن يصيح من فوق المنبر بالدعاء على المماليك ، أو أن يكتب الى أحد منهم كتابا ينبهه فيه الى أمر يقضى بعدم التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى »

الى أن قال الأستاذ الشرقاوى (١) « ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا فى غضبتهم نفعيين تحركهم الرغائب والمصلحة الخاصة ، حين يغضبون فى أمر أوقافهم اذ أن فيما يذكره الجبرتى فى صفحات كثيرة من تاريخه ما يظهرها على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب فى أمور الله لا لمنفعتهم الخاصة » .

وما توهمه الأستاذ الشرقاوى رحمه الله ممتنع ، لأنه يعرف جيدا أن الدردير وعلماء الأزهر لم يثوروا لانقطاع أرزاقهم ! ولكن الطلاب من المغاربة قد لجئوا اليهم فوجب عليهم أن يأخذوا بناصرهم ، فالامر ليس أمر الاساتذة، ولكنه أمر نفر من الطلاب ، بدليل أن الشيخ الدردير قد تابع مواقفه النضالية فى ظروف لم تكن أسبابها ترجع الى أحد من أبناء الأزهر ، بل الى نصرة الحق المهتضم على أيدى الغاصبين .

ففى بعض أيام الأول سنة ١٢٠٠ هـ قام طاغية من طغاة المماليك ، ومعه طائفة من جنوده باقتحام دار آهلة رأى عليها معالم الثراء فنهبا وأخذ ما فيها عنوة ، فجزع الناس وتجمعوا طوائف ، واتجهوا الى الأزهر الشريف ، فقابلوا الشيخ الدردير فغضب غضبا شديدا ، وقال أنا معكم ولابد

---

(١) مجلة الازهر المجلد ١٩ ص ٢٦١ .

من الانتقام ، ثم أوصد أبواب الجامع الازهر ، وصعد المؤذنون الى المآذن يضجون ويدقون الطبول ، وتلك وسيلة الاعلام آنذاك لاذاعة الخبر الكريه ، فانتشر الناس من كل فج حتى ملأوا الأسواق ، وأوصدت المتاجر ، وخرج علماء الأزهر ، وعلى رأسهم الدردير ، وقال لابد أن نسير الى بولاق حيث يسكن هؤلاء الأمراء ، ولابد من نهب بيوتهم وسينصرنا الله عليهم أو نموت شهداء ، وفزع شيخ البلد ابراهيم بك فأرسل الوفود الى الدردير ، وطلب أن يرسل قائمة بجميع ما نهب حتى يرده ، وقد كان .

ولم تكد تمضى مدة يسيرة ، حتى جد حادث مماثل فى طنطا ، اذ كان أحمد الدردير يزورها فى المولد الأحمدى ، فجاء كاشف الغربية وفرض على الناس ضرائب ثقيلة لا طاقة لهم بها ، ثم استاق كثيرا مما أمامه من ابل وماشية وعروض تجارة غير عابىء بضجيج العامة وصراخ النساء ، فركب الشيخ الى الكاشف ووراءه حشود الناقمين وناداه لائما مهددا ، وخرج الناس عن طورهم فضربوا من بالمنزل ورجموا أهله بالطوب وقامت فتنة كبيرة فتراخى الكاشف وفزع يطلب الصلح معتذرا عما كان ، وسافر الدردير غاضبا الى القاهرة فأذاع ما رأى وسارع الى ابراهيم بك يعلمه بما كان ، فأخذ يبدى اعتذاره والشيخ ثائر لا يهدأ .

لقد كان علماء الأزهر لسان الشعب حقا ، واذا غابت صحيفة جهاد هؤلاء من أخبار ابن اياس والجبرتى فقد سجل التاريخ عار الأبد على قوم يظلمون فيستكينون ، ولكن الله قد حفظ لهذا الوطن العزيز أبطاله الكبار فحملوا أمانة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهم بازاء همج

لا يعرفون للكرامة معنى ! فالأمير من المماليك قد نشأ على حب نفسه فحسب وقد خيل اليه أنه كلما ازداد مالا وأتباعا وعبيدا علا صيته وتمهدت الامور الى رآسته الكبرى، ومن أين يأتى الثراء الا من عرق الشعب الكادح فلينهب المتاجر، وليقتحم المنازل ، وليسرف فى العدوان ! غافلا عن انتقام الله ! وقد كان الانتقام الساحق فى الحملة الفرنسية حين حصدت فلول الأمراء فى أول لقاء .

ونترك الشيخ الدردير الى عالم كبير هو الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ العلماء ، فقد كان يملك أرضا فى بلبيس، وجاءه أقاربه يعلنون أن محمد بك الألفى قد داهم البلدة ، وأخذ ما وقعت يده عليه وفرض الضرائب الباهظة ، فاستاء الشيخ ، وعمد الى الموقف المعتاد حيث عطل الدراسة بالأزهر ، وصعد المؤذنون على المآذن فأعلموا الناس بما جد من خطر ، فتركوا متاجرهم وتعطلت الأسواق ، ثم تزاور الشيوخ ، وتناقش العامة فى الطرقات حتى تم الاتفاق على الذهاب الى بيت الشيخ السادات ، وهو قريب من بيت ابراهيم بك كبير المماليك لوقته ، ونظر فرأى الضجة ، وانتهى اليه سخط العلماء ومن ورائهم العامة على مايكابدون من البغى ، وجاءه الطلب الصريح من قادة الأزهر بضرورة رفع الجور واقامة الشرع ، وابطال المكوس الجائرة ، فاتصل بالناقمين كالمهدد ، فقوبل بهجوم لا عهد له به ، واحتج بكثرة نفقات الأمراء ، فجابهه العلماء بأن النفقة لا تأتى عن طريق السلب والأمير لا يكون أميرا لأنه يأخذ ويسلب بل لأنه يعطى ويمنح ، فاذا كان غاصبا ناهبا فهو قاطع طريق لا أمير ، وتأزم الموقف وقد رجع العلماء جميعا الى الجامع الأزهر واعتصموا به دون أن يفارقوه الى منازلهم

واستمرت المتاجر موصدة ، والأسواق معطلة والصيحات الناقمة ترتفع من المآذن ، واتصل الأمراء بالوالى العثمانى فأخذوا يتشاورون ثم جاءوا جميعا يعلنون خضـــوعهم الى مطـالب علماء الأزهر اذ يبطلـون الضرائب المســـتحدثة ويمتنعون عن مصادرة الأموال . ونهب المتاجر ، وجاء قاضى القضاة فكتب وثيقة بذلك على الامراءلتكونموضعالالزام فسجلت حقوق الانسان فى وطنه اذ يعيش حرا آمنا على نفسه وأهله وماله ، وقد وقعها الوالى والقاضى والأمراء ، وحفظها علماء الأزهر لتكون موضع الاحتكام .

يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد معلقا على هـــذه الأحداث :

« ونحن اذا بحثنا حال فرنسا قبل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفـــوس فيها أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فان فرنســـا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ومن العبث بالحريات الى أواخر ذلك القرن ، لا بل ان سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى وســـطه ، فكانت أفاعيـــل لويس الخامس ، وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وغيظ . ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك . وانما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جــاء فى عقبه » .

ونحن ننقل حديث الكاتب عن فرنسا ، لا لنتخـذ منها القدوة ، بل لنقول للناس ان الظلم منتشر فى كل مكان وأن العاصمة التى تسمى اليوم مدينة النــور كانت ليـــلا ترزح الأهوال فى دياجيره بالأمس ، فالذين يحـــاولون انتقاص المصريين حين قهرهم الظلم في عصر من الأعصـار

عليهم أن يعلموا أن هذا الظلم من طبيعة البشر لا يختص به قوم دون قوم أو موطن دون موطن ! واذا ظلمت وثرت على الظالم فقد حفظت كرامتك ! وهــــذا ما قام به علماء الأزهر فى غياهب الأحداث .

فاذا تركنا أمراء المماليك الى بعض مظــــالم الولاة من الأتراك ، فاننا نجد علماء الازهر لم يكسنوا عما يرونه من ضيم ، وصحف الجبرتى تسجل لهؤلاء فى مقاومة الولاة بطولات ذات مجد ، ومنها ما حدث فى عام ١١٤٨ هـ حين أرسل السلطان العثمانى من يعلن أمره العالى بابطال بعض ما يصرف فى بعض وجوه الخير من مرتبات ، وقد قرىء الامر على من حضر من العلماء فى اجتماع عقد لذلك فبدت الدهشة على الوجــوه اذ كيف توقف نفقات المساجد والمستشفيات ، وقد رأى القاضى التركى دلائل الغضب فقال : هذا أمر السلطان وهو واجب الطاعة اذ لا يعصى أمير المؤمنين !!

فقام العالم الأزهرى الشيخ سليمان المنصورى محتدا ، وهو يقول للقاضى ماذا تقول يا شيخ ؟ أمر السلطان ينفذ اذا كان يتجه وجهة الخير ! وهذه المرتبات قدأحدثهانائب السلطان لضرورة يراها ، وأمر نائب الســـلطان كأمــره تماما ، فلماذا نلغى أمر النـائب مع نفعه ، ونطيــع أمــر السلطان مع ضرره ! هــــذه النفقات مما جرت به العــادة وتداوله الناس ورتبوه على المساجد والأسبلة ووجوه الخير فاذا بطلت بطلت هذه الشرائع ، وأمر السلطان لا يسلم فيما يخالف الشرع !

وناصر الحــاضرون من يتكلم فى جــرأة ، حتى بطل المشروع .

وثانية أخرى من هذا الوادى ! فقد جاء أمر السلطان

بضرورة جمع المال لايفاد كتيبة من جنود تركيا لتحارب المماليك في الصعيد! واجتمع مجلس من العلماء وذوى الرأى لاقتراح الوسائل لجمع المال ، فقام الشيخ العروسى كبير علماء الازهر لوقته وجهر بمعتقد الشعب الصريح فى العثمانيين والمماليك حين قال : ماذا يهمنا من نزاعكم مع الامراء سيروا اليهم أما أن تغلبوهم أو يغلبوكم فلن يعود علينا شيء!! وكان هذا القول أكبر من أن يحتمل اذ أن معناه الصريح أن العثمانيين ظلمة كالامراء ، وأن الشعب بمنعزل عن الفريقين ، وهو قول صحيح لامرية فيه ولكن الجهر به فى اجتماع رسمى يحضره حسن باشا القبودان قائد الجيش العثمانى ومبعوث السلطان الى مصر ، يدل على أن الصبر قد نفذ ، وأن المسألة لا تتطلب الاحتمال ، كما يدل على أن الحق يجد أنصاره من أفذاذ العلماء .

وفى كلام الجبرتى حديث طويل عن مظالم مراد الطاغية ومجابهة العلماء له ، وفيما تقدم ما يغنى عن التطويل بذكره لأن الرجل ظالم بغيض ..

الأزهـــــر
والغزوة الفرنسية

كان الأزهـر وحده هو جامعـة الثقـافة المصرية حين تعرضت البلاد للغزو الفرنسى بقيـادة نابليون ، ومعنى ذلك أن علماءه كانوا ذوى التوجيه الهـادف ، والزعامة القائدة بين الجمهور ، ولئن كانت الثورة العرابية بزعامة أحمد عرابى الأزهرى الباسل وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول الأزهرى الغيور فان هاتين الثورتين قد جمعتا فى قيادتها المخلصة أبطالا مصريين لا ينتمون الى الأزهـر ولكنهم يشاركون رجاله حبهم لمصر وعملهم على انقاذ البلاد من براثن الطغاة ! أما الزعامة الموجهة أثنـاء الاحتـلال الفرنسى فقد خلصت لعلماء الأزهر ورجاله ! أقـول ذلك لأن بعض الكاتبين عن المقاومة المصرية أثناء هذا الاحتلال الغاشم قد أجهد نفسه اجهادا شـديدا ليبعد بالعمـل النضالى عن الازهر ورجاله ! وليذهب بهالىشخصواحد لا نكاد نجد له ذكر افعالا لدى الصادقين من مؤرخى هذه الحملة ! وهذا هو الظلم الصريح المجابه لضوء الشمس فى رائعة النهار ، لينكر أشـعتها التى تضىء الرحاب وتملأ شعاب الكون ! واحترام الكلمة يلزم الكاتبين فى ميـدان التاريخ أن يبعدوا بأهوائهم الشخصية عن قدس الحقيقة، فليس التاريخ قصة تلفق فى متاهات الخيال ولكنه وقائع

ذات شهود وأبناء ورواة ومؤرخين ! ولن يصنع الذكاء الخارق شيئا ذا بال فى طمس هذه الحقائق . اذ أن الذكى مهما بالغ فى اقتداره الاحتيالى سيجد من يفوقه ذكاء ويزيد عليه غيرة وحمية فى نصرة الحقيقة ولابد أن ينكشف احتياله اذا تجلت الحقائق دون لبس ، وفى ذلك خزى لمن مارى ودلس عن غرضه ، ليشبع رغبة ذاتية نرضى حاجة فى نفس يعقوب .

لسنا ننكر ـ شهد الله ـ جهود المواطنين فى كل مكان لأن الثورة على الاحتلال قد عمت أرجاء البلاد ، ونهض فى كل اقليم بحرى وقبلى من قاد المعارك فى شراسة ، ومن جمع الناس من خلفه ليجابهوا الزحف الفرنسى ، وقد شهد كتاب فرنسا أنفسهم ببطولة هؤلاء العزل من الأحرار الذين كانوا يهجمون على المدافع فى الريف مستشهدين وليس معهم غير العصى والهراوات ، كل ذلك مدون مسطور فيما كتب الشرقيون والغربيون معا !! فاذا جاء كاتب ذو غرض يسير بالأحداث سيرا معوجا ، فقد ضل الطريق .

قدمت الحملة الفرنسية فى عصر أسود ، اذ كان الطاغيتان ابراهيم ومراد يحكمان البلاد حكما رهيبا لايعرف معنى العدل ، وكلاهما جاهل لا يعرف شيئا من أمور السياسية الدولية ولا يظن الدنيا تجمع قوة أقوى من قوة المماليك الذين يتبعونه ، هذا الى تهور مراد وبطشه وسفكه للدماء دون مبرر حتى ترك كثير من الفلاحين أرضهم وحملوا أطفالهم الى حيث لا يعلمون ، وقد تعلل نابليون بما حاق التجار الفرنسيين من مظالم على يد مراد لأنه أثقلهم بالمغارم الفادحة فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ، اذ كانت لهم متاجر رابحة فى هذه البلاد فوالى مراد استنزافها

ومصادرتها ، حتى شكت فرنسا صنيعه الى الدولة العثمانية وقامت تركيا بتحذيره فلم يهتم !! أقول تعلل نابليون بذلك أمام الشعب المصرى ليبدى ستارا خادعا فحسب، لأن احتلال مصر كان سياسة ضرورية فى رأيه ليقف أمام انجلترا موقف من يسيطر على مستعمراتها فى الشرق ويحول دون اتصالها المطرد بهذه المستعمرات ، كما أنه متنفس لفرنسا كى تشعر بامتدادها الاستعمارى على نحو يرضى غرورها الجشع ، وحين علم مراد بالغزو الفرنسى استهزأ به ، وظن القادمين فلولا مرتعشة ترجف من سطوة المماليك ، وقد عبر بذلك لقنصل النمسا حين قال ان الفرنسيين (فستق) للأكل لا للحرب ! ثم جمع لمقاومتهم جيشا ضم اثنى عشر ألفا منهم ثلاثة آلاف من المماليك وتسعة آلاف من الفلاحين والعرب الذين لا يعرفون بدائه القتال ! ولا نسرف فى وصف هده المعركة الأليمة ، فقد انتصر نابليون واحتل البلاد ..

نزل القائد القاهرة واثقا مفتخرا ، ومال الى الكياسة فأعلن حبه للشعب المصرى ، وقد جاء لينقذه من بطش المماليك والعثمانيين ، فهو يحب الاسلام ويقدر شريعته ، ثم أنشأ ديوانا لحكم مصر جعل أعضاءه عشرة من كبار العلماء ليوهم الشعب أنهم الحاكمون ، وجاءت مناسبة المولد النبوى فاحتفل به احتفالا باهرا ، كما احتفل بوفاء النيل احتفالا مماثلا يفوق ما عهد فى أيام مراد ، اذ أطلق المدافع ، وزين السفن بالمصابيح ، وأظهر ابتهاج جنده بما يشاهدون ! وظن بعد ذلك كله أن الأمر استقر ، وأن الريح ستجرى رخاء فى مقبل أيامه .

اخذ ابطال المقاومة يتجمعون ، وكان الأزهر محلهم

المصلين . فكدسوا الأسلحة في أروقته وزواياه حتى اذا استوثقوا من قوتهم صعد المؤذنون ينادون بالجهاد على المآذن ، وفي مذكرات نابليون ما يثبت أن لجنة بالأزهر كانت تسمى لجنة الثورة وأن رئاستها كانت للشيخ السادات ، وأن علماء الأزهر كانوا يطوفون بالشوارع محرضين ، كما قدرت المصادر الفرنسية عدد الذين تجمعوا بالأزهر تحت قيادة علمائه بخمسة عشر ألفا ! وقد التقى بهم الجنرال ديبوى فقتلوه حين أطلق عليهم الرصاص يقول الأستاذ محمود الشرقاوى (١) .

« ثم جاء اليوم الثاني وقد أصبح الأزهر مقر القيادة يعج بالثائرين ، وأحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة اليه بالمتاريس ، كما أخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة وقمعها ، وطلب القائد الجديد (بون) الى نابليون أن يأذن له في اتخاذ أقسى الوسائل صرامة مع الأزهر وقيادة الثورة فيه ، وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والأماكن العالية التي تحيط بالقاهرة ، فلما أصبح الصبح كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة لها ، وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، وأوقفوا على أبواب المدينة حرسا منهم تأذن لهم بالدخول ، ويوجههم الى أماكنهم لتعزيز الثورة ، فقدم من الجيزة وقليوب والزيتون والمطرية والقبة والمرج خلق كثير .

لم تكن الثورة شيئا يسيرا اذن ، وحسبك أن تعلم أن الثائرين قد بارحوا الجامع الأزهر الى مقر القيادة الفرنسية بالأزبكية ، ومقر القيادة هو عرين الأسد الذى تحوطه

---

(١) تاريخ مصر في القرن الثامن عشر ص ٥٣ .

القذائف ذات الهول ، والرصاص ذو النفاذ ، ولكن الأبطال قد تسلقوا احدى المآذن القريبة من المقر وأخذوا يرسلون وابلا من الرصاص ، ودهش الفرنسيون لهول المباغتة ، فجاوبوا الثائرين نارا بنار ، ولكن المهاجمين أصروا على الضرب وواصلوه في شجاعة غيرمتوقعة ، فسقطت الشرفات وانهارت الجدران ، وكان الانتقام رهيبا اذ تجمع الفرنسيون ليقتحموا المسجد ، وليصعدوا الى المئذنة وليلسطوا المدافع على كل من يجدونه ! حتى النساء اللاتى كن يقدمن الذخيرة للثائرين فذهبت أرواحهن مع الذاهبين .

ولم يهدأ نابليون بعد أن تحطم المسجد مبنى ومئذنة ! بل اتجه تفكيره الى المسجد الاكبر ، الى الجامع الازهر فحول الكتائب الزاحفة اليه ، فواصلت الضرب الصاعق من الظهر الى الليل ، ثم اتسع ميدان التحطيم الى حيث شمل مناطق الغورية والفحامين والصنادقية والكحكيين وباب زويلة ! وكأن المراد ان يهدم كل حي يتصل بالازهر من قريب أو بعيد ، وهى روح انتقامية تصور ما يعتلج فى نفوس الغزاة من الحقد والتشفي ، وما يضطرم بها من الغليل ، واذا أردت وصفا لبعض ما كان على لسان الغزاة أنفسهم فاستمع الى ما دونه (ريبو) عن هذه المعركة ، ونقله عبد الرحمن الرافعى (١) .

« أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب ، فتدفن تحت أنقاضه الجماهير المحتشدة به ، وأصبح الحى المجاور من الأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم تجد الا بيوتا مدمرة ، ودورا محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٩٧ .

السكان الآمنين ، كان يسمع لهم أنين موجع وصـــيحات مرعبة »[1] .

ان الذين يصفون الشعب المصرى بالاســتكانة والرضى بالاحتلال ، يجب أن يقرءوا ما دونه قادة الفرنسيين أنفسهم عن ثورة هذا الشعب ، ليعرفوا أن هؤلاء الذين أنهكهم حكم المماليك لم يسكتوا عن التضحية بأرواحهم فى معـــركة يعرفون جيدا انها غير متكافئة الاقران ، بل تقول انهم آثروا الاستشهاد المحقق على حياة يرى فيها الاجنبى شامخا باحتلاله ، فخورا بغـزوه فجمعـوا كل ما قدروا عليه من وسائل الدفاع ، ورموا بأنفسهم فى فوهة الموت ليريحـوا عواطفهم أن تستفز برؤية دخيـــل بغيض ! وهل تكـون الشجاعة فى أبهر صورها غير شجاعة انسان غيور غضوب يؤثر الموت على الحياة حين يرى تحكـم العـدو فى نفســه وأهله وذويه ! ولو كانت الاستكانة صفة حقيقة لهـــذا الشعب المفترى عليه ، لآثر الخضوع ، ونابليـون يعـده الأمانى ، ويشاركه احتفالاته الدينية ، ويعلن حبه للدين الاسلامى ، ويؤلف مجلس الحكم من كبار العلماء ! ويمنع ما عهد فى المتاجر والاسواق أيام المماليك من السلب والنهب والاغتصاب ! ويبدأ فى تنظيم الشوارع ، ونظافة المسالك بما لم يعهد من قبل ! كل ذلك لا يســـاوى ذرة واحدة من ذرات الكرامة المســتباحة ، ولان يزن ذبابة فى ميزان الحرية المنشودة ، والاستقلال المراد ، وما يقال عن القاهرة يقال عن المقاومة المستبسلة فى كل صقع على أيدى أناس بررة من ذوى النخوة المثالية ، ولسنا بصدد التاريخ للحملة الفرنسية حتى نستفيض فى تســـجيل بطولاتهم الرائعة ، ولكننا نشير اليها مســـتدلين على روح العـــزة

الاسلامية التى تملأ نفوس الشعب المصرى ، وترتفع به عن دركات المذلة والهوان .

وحين سكتت أفوه المدافع بعد أن أحدثت بشـــائع التخريب ، وفظائع التدمير ، اتجه نابليـون الى الجـــامع الأزهر ، وعواطفهم تلتهب سخطا وغيظا ، وقد أبيد من فيه من المقاتلين ، فلم يجدوا انســـانا يتحـرك ، ولكن كيف يشفون غليلهم منه ، وهو خلاء من العلماء ، قفر من الطلاب بلقع من المجاهدين الثائرين ؟ لئن فاتهم أن ينتقموا من القاطنين فلينتقموا من الجدران والأعمدة والنوافذ والمنابر، لقد دخلوا المسجد الحرام راكبى الخيول شاهرى السلاح، وأخذوا يتخطرون في صحنه الواسع ، ثم ربطوا خيولهم بقبلته ، وداهموا الأروقة وخزانات الكتب ، ومصـــابيح السقوف ، وقناديل الاضاءة ، ونهبوا ما وجدوه ذا نفـع من الأوانى والقصاع والودائع والمدخرات ، أما الكتب فقد نثرت على الأرض لتلتهمها النيران ! وأما المصـاحف وهى أعز شيء فى الأزهر فقد ديست بالنعـــال ! لا أقول ذلك توهما أو جريا مع الخيـــال ، ولكنى أرجع الى الجبـرتى فأجد يصور الكثير مما أعجز عن استيفائه ! والعجز عجز شعور يكتوى بالحسرة ، واحساس يلتهب بالغيظ لا عجز قلم يكتب ، وورق يسود ، فما أهون ما يجرى القلم سابحا مسطرا ، ولكن المجال الرهيب يعقل كل جامح ســـباق ! ولا يجب أن نقول أن نابليون قد عثر على أسماء الزعمـاء فأعدم منهم ثمانين بطلا فدائيا نجا من القنـــابل ليواجه الانتقام وفيهم خيرة العلماء والتجار والصناع ووجوه البلاد وأعيانها ممن زحفوا من الأقاليم النائية ناصرين مسعفين ! وقد قال المسجلون للأحداث ان الاعدام كان يتم على فترات

بحيث يفاجأ المصريون فى الصباح برؤوس ترمى فى الطريق لتكون عبرة لمن اعتبر ، وهو عمل تسأل عنه ما تسمى بثورة الحرية والاخاء والمساواة في فرنسا ، وهى شعارات زائفة يكذبها الواقع الصريح ، ولا تعدم بين ذيول الناس من يتشدق بها ، وهو يعلم دواهيها الراعبة فى كل بلد محتل ، ولكن الآذان صم والعيون فى عماء .

ثارت القاهرة مرة ثانية فى عهد كليبر ، وأوجز ما يقال فى هذه الثورة أنها كانت حريقا التهم الأحياء الشعبية جميعها ، اذ كانت مبعث الثورة الممتد الى كل الجهات الأربع من الأزهر الى بولاق وأبو الريش ، ولا يستطيع أحد أن يملك دموعه وهويقرأ ما سطره الجبرتى متحدثا عما شاهد من الأهوال ، بل أن الفرنسيين أنفسهم قد أبدوا الدهشة لما تم بعد أن سكتت المدافع وهدأت النيران ، يقول المسيو « جولان » بصدد ذلك .

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ ابريل وكان هولا هائلا شاملا جميع الحارات ، فصبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طوال الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها اثر بعض ، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ما لم يحدث مثله منذ بدىء الحصار ، وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس فى تلك الموقعة .

وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف بالأزبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الامكان أن تخطو خطوة الا على كثبان من الخرائب

والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد فى هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشـون الجثث من تحت الأنقـاض والخـرائب ، فكلما أظهروا جثـة زاد المنظـر هـولا وفظاعة » (١) .

وقد ظن كليبر أن الشدة ستعقب له راحة البال ، ولم يستشعر ندما على استفحال النقمة ، وتمادى الطغيـان ، بدليل أنه اباح لبعض عملائه أن يهدموا ما يشاءون من المنازل اذا امتنع ساكنوها عن سداد الضرائب ! ومن أين ؟ وقد نهبوا كل ما وقعت أيديهم عليه ! ولكن الموت قد ترصده من حيث لا يحتسب اذ وفد على الأزهر سليمان الحلبى وقد كان طالبا به من قبل ، يعرف الكثيرين من أساتذته وطلابه، ولم يكن التحريض من خارج مصر كافيا لاشـعال روح الانتقام فى صدره ، بل أن الذى ضاعف اشتعالها ثواؤه بالقاهرة ثلاثين يوما يجتمع بالطلاب والأساتذة ويسير فى الشوارع والطرقات فيرى الخرائب الخاوية تنعى أصحابها وتبكى من ثووا تحت أنقاضها من الشـهداء ، فأقدم على اغتيال كليبر وقد تمهد الطريق أمامه لمشيئة أرادها الله ، لأن مثل هذا القائد الأجنبى الطاغية لا يسهل الوصول اليه فى قصر يحوطه الحراسون المدججون بأفتـك سـلاح ، بل لا يستطيع شاب واحد أن يطعنه بخنجر لا يملك سواه ! وقد تم مصرعه فى لحظات ودار التحقيق ليثبت اتهام اربعة من طلاب الأزهر كانوا دائما فى رفقة الحلبى قبل أن يقدم على الانتقام ، وقد أعدم الأزهريون بقطع رءوسهم ، واحراق

(١) من تاريخ الحركة القومية للرافعى جـ ١ ص ٨١٠ بتصرف قليل .

جثثهم ، ثم وضعت رؤوسهم على العصى الغليظة ليطاف بها فى الاحياء .

واتجهت الريبة الى كل أزهرى ، فكان الشيخ من الطلاب لا يأمن على نفسه أن تتخطفه الجنود دون ذنب سوى أنه أزهرى ، لذلك تقدم شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى ومعه الشيخان الصاوى والمهدى الى الجنرال مينو الحاكم الجديد كي يأذن باقفال الأزهر كيلا يكون موضعا للانتقام، اذ لا يؤمه غير الطلاب والأساتذة والمصلين ، فأجاب مينو طلبة القوم ، وسمرت الأبواب بعد أسبوع واحد من مقتل كليبر ، وظل الأزهر موصد الأبواب حتى رحلت الحملة الفرنسية الى وطنها غير مأسوف عليها من انسان ..

ولا يتسع المجال لذكر من تعرضعوا للبلاء قتلا وارهابا من أبناء الأزهر ! حتى الذين لا يقدرون على التنفيذ لمرض يعوقهم ، ومن هؤلاء الشيخ سليمان الجوسقى اذا كان شيخا لزاوية العميان ، وكان حريصا على أن تنجو البلاد من هؤلاء المستبدين ، فأخذ يلقى دروسه الوطنية داعيا الى الثورة ، ومستشهدا بما قام به السلف من فدائية نادرة فألهب النفوس ، وتحقق لذوى الأمر من الحاكمين دوره الكبير فى اشعال الثورة الاولى ، وشهد الخونة أنه كان يخطب الجمهور مشجعا ابان العاصفه ، وأنه رغم فقد البصر كان ينتقل من مكان الى مكان دون قائد ليشعل الحمية في الصدور يقول الأستاذ الكبير محمد فهمى عبد اللطيف بعد حديث مشبع عن جهاد سليمان الجوسقى « ووقف الشيخ سليمان فى انفعال وقوة ، وأخذ يصرخ والدموع تنحدر على خديه هاتفا : والله ما قام عمود هذا الدين الا بالجهاد ، ولا أزهرت شجرة الاسلام الا بدماء الشهداء ولقد خاض رسول

الله الحرب حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وفى سبيل الله استشهد سادتنا من الصحابة والتابعين فلعنة الله علينا ان كنا من القاعدين بعد اليوم ..

وبعد أن وصف الكاتب ثورة الأزهر وانتقام البغاة قال :

« وأصبح الصباح وكانت القوات الفرنسية كلها تجمعت فى حى الأزهر وفى جميع الأحياء التى عضدت الثورة ، وأخذوا ينهبون الدور ، ويبحثون عن السلاح فى كل مكان، ثم أخذوا يبحثون عن الشيوخ الذين تزعموا الثورة واعتقلوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل الشبراوى ، وحبسوهم فى بيت البكرى أياما ثم ذهبوا بهم الى القلعة .

وقصد الشيخ السادات ، ومعه بعض كبار المشايخ بالأزهر الى القائد الفرنسى ، وطلبوا منه العفو عن المعتقلين فأمهلهم بعض الوقت ، وفى كل يوم كانوا يذهبون اليه متشفعين فيمهلهم حتى يستقر الأمن ، وبعد مدة خمسة عشر يوما انكشفت الحقيقة فى صنع الاستعماريين فقد وجدت جثث الشيوخ الخمسة وراء سور القلعة ، بعد أن قتلهم الفرنسيون ومثلوا بهم أشنع تمثيل ، ذلك لأنهم ارتكبوا أشنع جرم فى حق أبناء المدينة الفرنسية حين طالبوا بحق أمتهم فى الحياة والحرية (١) .

والذين ذهبوا شهداء من أمثال هؤلاء فى حاجة الى أن تكتب قصص بطولاتهم فى روايات أدبية تظهر روعة الفداء وعظمة التضحية ، وتصور حقبة من الزمن كانت على قصرها موضع اضطرام متأجج فى الصدور والميادين معا : والذين لم

---

(١) مجلة الازهر : المجلد الثامن والعشرون ص ٨٥٣ .

يرزقوا الشهادة من المناضلين قد قاسوا محنا كثيرة سطرتها الصحف بايجاز يحتاج الى أطناب كاشف ، واحصار هؤلاء المجاهدين من العلماء فوق الطاقة ولكننا نشير الى رجلين بارزين منهما ، هما الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ السادات !

أما عبد الله الشرقاوى ، فقد كان شيخ الأزهر لعهد الحملة الفرنسية ، وقد عمل رؤساؤها على ارضائه بكل سبيل ، فانتخبوه رئيسا للديوان ، ولكن حكمته المجربة أوحت اليه أن يعارض بالتى هى أحسن ، ليستطيع أن يكسب الخير لبلاده من أسهل طريق ، وقد أخذ ذلك عليه بعض المتحمسين ، ولكننا نعلم أن لكل انسان نظرته المختلفة باختلاف التجربة والسن والحيطة ! وشيخ كعبد الله الشرقاوى قد اعتقد أن الماء فى سهولته اليسيرة يطفىء النار المشتعلة ، فآثر أن يكون ماء يجتث الجذور الضاربة فى باطن الأرض دون أن يكون نارا لا تتجاوز ما ظهر فوقها من الجذوع ! على أنه رغم هدوئه الحازم لم يملك نفسه ساعة العضب ، فقد احتفل نابليون ببعض المناسبات ، ورأى أن يكرم الشرقاوى فأهداه الشارة الفرنسية ووضعها على كتفه ، وهى ترمز الى علم مثلث اللون ، فهاج الشيخ ورمى بالشارة على الأرض وجعلها تحت قدمه ! وغضب نابليون اذ أهان الشيخ رمز بلاده ، وقال انه لا يصلح لرئاسة الديوان ، وقد خرج عبد الله دون انتظار وبعث اليه القائد مسترضيا كى يسكته عنه ، ولكنه رد فى عنف .

وحين ثارت القاهرة ثورتها الثانية تحقق القائد أن الثائرين يبيتون فى منزل الشيخ ، وأنه يوغر صدورهم ، وقد واجهوه بذلك فلم ينكر ، وقال ان بيته مفتوح دائما

للمسلمين! وحين قتل كليبر أثبت أحد الشهود أنه زار منزل الشرقاوى وبات به بعض الليلات ، ولم ينكر الشرقاوى ، وقد كادوا يهمون به لولا أنهم تخوفوا العاقبة حين يشيع فى الملأ أن شيخ الاسلام قد قتل ! وقد قرئت أوراق التحقيق فى مقتل كليبر ، فذكر اسم الشرقاوى بين من حامت عليهم الظنون ، وقد أخذ بالذنب من دونه ، وتحاموه مغيظين .

أما الشيخ السادات ، فقد كان ذا منصب روحى ، وصاحب نفوذ كبير فى المصريين ، وقد هادنه الفرنسيون كما هادنوا عبد الله الشرقاوى ، وتحقق الفرنسيون من دوره المؤثر فى اشتعال الثورة الأولى ، وهم كليبر باعدامه ، ولكن نابليون أشار بالتغاضى عنه كيلا يزداد الضرام ، وبعد الثورة الثانية ثبت دور السادات بما لا يقبل الشك ، فتعرض للتعذيب والسجن بمرأى من أتباعه وسجن بالقلعة وكانوا يدفعون به الى الطريق حافيا مكشوف الرأس . وفرضوا عليه ضرائب فادحة لا سبيل الى جمعها ، وزادوا بأن ضربوه بالعصا أياما متوالية أمام زوجاته وأولاده، ثم هاجموا دوره ونهبوا ما بها من المتاع ، وسجنوا زوجته دون جرم ، ومات ابنه وهو سجين دون أن يراه ، وقد قيل لهم انه يضع الذهب فى باطن الأرض بدار الكبرى ، فحفروا كل موضع منها ، ولم يجدوا شيئا ! وقد سجن أربع مرات دون أن يتراجع عن عداوته الشرسة للأعداء . ثم ذهبت الحملة الفرنسية فاسترجع عزه الغائب ، بعد أن أدى ضريبة الوطن تضحية وافتداء .

ان على الذين يكتبون تاريخ الحركة القومية أيام الغزو

الفـــرنسي أن يعلموا أن الحق أبلج ، وأن مـؤرخى أوربا أنفسهم قد انصفوا علماء الازهر انصافا لايعرف الغرض، واذا جاء اليوم من يحاول أن يطفيء هذه التضحيات الباسلة فان الحق يصدمه بما سجله التاريخ فى الوثائق والمصادر واليوميات ٠

فى عصر محمد على

حين انقشع بلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، كان على الساسة أن يبدلوا مســـيرتهم فى الحكم ، وأن يعلموا أن المخلصين من أبناء الوطن هم الذين دافعوا عنه ، وأن أرواح الآلاف فى القاهرة والوجه البحرى والوجه القبلى قد ذهبت رخيصة هينة فى سبيل الاســـتقلال ، وأن هؤلاء الذين ضحوا بكل شىء فى حاجة الى اطمئنان نفسى ، ليواصــلوا سعيهم فى الحياة زراعة وتجارة وصناعة ، ولكن الساسة من الولاة والمماليك لم يفكروا فى شىء من ذلـك ، فالوالى العثمانى قد جلس فى القلعة ليواصل طريقة أســلافه فى الغطرسة والاستغلال واستنزاف ما تبقى من مواد الثروة فى البلاد ، والمماليك الذين هربوا مدحورين بعد واقعة امبابة ، وطارت فلولهم الى الصعيد والشام قد رجعوا مسرعين لينهبوا الغنيمة الباردة ، وكأنهم هم الذين ضحوا بأرواحهم فى الثورات المتتابعة بالقاهرة والأقاليم ، وقـد رأينا رئيسهم الطاغية مراد يهرب بأتباعه الى الصعيد ، ثم يحاول استرضاء نابليون بالاستجابة الى كل ما يطلب ، فكشف عن جبن جزوع ، وعن مهانة مسفة كان الموت أفضل منهما بكثير ، أجل ، كان على الساسة أن يبدلوا مسيرتهم

:مام تضحيات هذا الشعب المناضل ، ولكن الروايه القديمه قد أعدت للتمثيل ، وتهيأ للوالى التركى أن يقــوم بالدور الأول وقد جاء من الآســتانة متغطرســـا متكبرا ، وكأنه اشترى ضيعة بماله الخاص يتصرف فيها كما يريد ! وكيف والشعب المتحفز المقتدى بعلمائه الكبار من شيوخ الأزهر قد شب عن الطوق وآلى على نفسه أن يدفع مظاهر الضيم والاستبداد ، لقد استعان الوالى (أحمد خورشيد) وقــد جاء الى البلاد سنة ١٨٠٥ بفريق ممن يسمون بجند الولاة ليداهموا المنازل والمتاجر وينهبوا الاموال،وتكررت حملات جنوده الباطشين دون رحمة أو ارعواء ، ولكن علماء الأزهر قد قرروا المقــاومة وانضم اليهم الزعيم المصرى الشهير (السيد عمر مكرم) فألفوا جماعة تمثل الشعب ، واتجهوا الى القلعة ليعلموا الوالى بما يرتكب جنوده من عسف ! وكان الرجل الغشوم على جهل بما يقدح فى النفوس من غضب ، لانه لم يكن يظن فى نفســه أن ما يقوم به من البطش مدعاة غضب ؛ بل انه حق مفروض لكل من جاء واليا على مصر من الآستانة ! ولك أن تتصور غضبه على المجتمعين ، حين صاح بهم من أنتم ؟ أنا وكيل مفوض من السلطان ! البلاد بلاد السلطان أفعل ما أشاء وأعزل وأولى من أشاء !

هنا بدت الانتفاضة الثائرة اذ تجمع الشعب خلف علمائه وزعمائه ، وجاء نائب الوالى ليرقب هذا التجمع فهــاج من رآه ، واندفع فريق من العامة فرموه بالحجارة ، وكاد يهلك لولا أن عجل بالفرار ، ولم يسكت القوم بل لجأت الجماهير الى بيت القاضى وكان تركيا ولكنه لم يؤيد الوالى الباطش ، ودارت مشــــاورات هادفة رمت الى عزل الوالى وتخليص الوطن من فساد جنوده ! ولم يكن (أحمد خورشيد) يظن

أن مصريا واحدا له الحق فى أن يطالب بعزله ! ولكن ذيوله قد نهضوا اليه يعلنون ان الزعماء مصممون على القتال، وأن وراءهم طوائف الشعب تذكى الوقود لتشعل النيران ! فآثر أن يعمل الحيلة ، وكتب الى القاضى التركى يدعوه الى التفاهم مع من يتزعمون الملأ من العلماء وكان السيد عمر مكرم حذرا فعلم أن مكيـــدة تدبر ، ورفض أن يذهب مع العلماء الى الوالى وجاهره بوجوب عزله ، وصـــعق الوالى فصاح (أنا مولى من السلطان ! عندى أوامر شريفة ، وكتب منيفة فكيف أعزل من الفلاحين) لقد دقت ساعة الصـــفر فتجمع الشعب بطوائفه يقيمـــون المتاريس ، ويحملـون الاسلحة ، ويستعدون لمهاجمة الولاة من جنود خورشيد، وقد بدءوا بحصار القلعة ، وذهب القـــاضى التركى حين هاله الأمـــر الى الوالى فقـــال له : أن نحو أربعين ألفـــا من المصريين يحملون السلاح أمام القلعة ويريدون أن تغادروا البلاد ، ولو فعلتم ذلك لنجوتهم ، ولو تماديتم لا آمن أن يقتحموا القلعة وأن يفتكوا بهم ومعكم الاهل والاولاد ! وجاء الليل فضربت الطبـــول حول القلعة ، وأوقـــدت المشاكل ، وسمع دوى الرصاص .

لقد كان الجنود من اتباع الولاة أهل جبن وخور فهم يهاجمون اصحاب المتاجر فى الاسواق ويقتحمون المنازل لينهبوا العزل فى استبداد ، ولكنهم أمام تجمع الطوائف الكثيرة ، قد أحسوا رعبا هالعا ، وخوفا مزعجا ، فلم يســـتطيعوا المقاومة ، ونظر الوالى فوجد نفسه فى وضع لا يحسد عليه، فهو محـــاصر من كل مكان ، واذا نفـــد الزاد والشراب من القلعة فلن ينقذه أحد ، بل انه لا يأمن الوثـــوب الكاســـح قبل أن ينفد الطعام والشراب فأرسل كبير رجاله ليجتمع

مع السيد عمر مكرم ، وليقول له كيف تخالفون كلام الله عز وجل وهو القائل فى كتابه « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » فقال له بعض الحاضرين من العلماء فى حدة أولو الأمر هم العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وليسوا الولاة الذين يبطشون وينهبون ويسرقون ! واذا كان الوالى يستشهد بكتاب الله فليطع أوامره ، وليعلم أنه فقد ولايته حين خالفها وعصى الله !

تأزم الأمر ، وظن خورشيد أن الثورة عليه تشمل القاهرة وحدها ، وأن رجال الأقاليم قائمون على طاعته ، وفى استطاعته أن يرسل الى قليوب من يحضر الجموع من هناك لينقذوه من حصار الفلاحين (صيانة لعرض السلطنة كما يقول ، ولكن رسله لم تجد المستجيب حتى نفد الطعام والماء من القلعة ، وطارت الأنباء الى تركيا فجاء مرسوم صريح بعزل الوالى ، لأن أمورها السياسية لا تتحمل الالتفات الى مصر ، ولو كان لدى أحمد خورشيد مسكة من حزم لعجل بالتسليم بعد مرسوم السلطان ، لأن معتمده الوحيد فى النقاش الجدلى مع الثائرين أنه معين بأوامر شريفة من السلطان وأن الفلاحين لا يملكون معه شيئا ، فاذا سلم الناس على سبيل الجدل بهذا الكلام فقد جاء المرسوم السلطانى بعزله ، وسقطت كل حجة يتذرع بها أمام الناس .

ازدادت الحوادث شدة ، فطلب العلماء من رسول السلطان أن يصعد الى خورشيد بالقلعة وأن يجبره على النزول قبل أن يداهم بالانقضاض ، وتيقن الرجل الخطر ، فأعلن التسليم ، وكان من مآثر عمر مكرم أنه آواه

، ستضاف أهله ومماليكه وجواريه فى منزله آياما حتى يتمكن من الرحيل فى سلامة ! ومكث الوالى بمنزل الزعيم خمسة أيام آمنا على نفسه وأهله حتى هيئت له سبيل الرحيل ، واذ ذاك هدأ الشعب ، وفتحت أبواب الدراسة بالأزهر ، لأن العلماء قد عطلوا التدريس وجمعوا الطلاب فى حشود الشعب ليكون مثار عزيمة وداعية تنشيط ، وقد أدوا واجبهم فى اذكاء الحماسة والهاب المشاعر حتى جنوا الثورة المشتهاة .

ولكن ماذا بعد عزل خورشيد ؟ وأى رجل يلى أمر البلاد ؟

يقول الجبرتى بعد أن ألم بشذور من هذه الأحداث على طريقته الخاصة فى كتابة اليوميات : « فلما أصبحوا – أى العلماء وأعيان القاهرة – اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه ، وحضر اليهم سعيد آغا والجماعة، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على ، وقالوا له : لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية ، فقال : ومن تريدونه يكون واليا ، قالوا له لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا ، لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ، ثم رضى ، وأحضروا له كركا وعليه قفطان . وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر » (١) .

والحق أن محمد على كان يرقب الأحداث من بعد ، ويمهد لنفسه بسلوك خاص لايلحظه أحد ، فهو يعرف تنازع العامة مع الجنود من الأتراك ، اذ دأب هؤلاء على اقتحام

---

(١) الجبرتى حـ ٣ ص ٣٥٠ .

المنازل والأسواق والمزارع ونهب ما تقع أيديهم عليه ، كما دأب الوالى وأمراء المماليك على الاغضاء عنهم ، فكان محمد على يتصل بالعلماء والتجار ويعلن استنكاره لما يرى من المظالم ، ويدعوهم الى الكتابة الى لسلطان رأسا ليضع حدا لهذه الأهوال ، ثم يأتى الى الجند فيقول لهم أنا منكم . ويشجعهم على ما يصنعون ليزداد الغضب ، وتشتعل الحقود ، وقد نقص النيل ، وانقطع الخير وحلت مجاعة قاصمة ،والوالى وأمراء المماليك وجنود العثمانيين لا يقومون بجهد ما فى انعاش الاقتصاد وتعمير الأسواق وكان عليهم أن يظهروا ما أدخروه من خزائن القمح والغلال الى الأسواق وأن يمنعوا الاحتكار ويقفوا دون غلاء الاسعار ، ولكنهم تركوا الامر فوضى ، فاجتمع العلماء بالأزهر واحتشد من ورائهم العامة حتى النساء دخلن الى المسجد الجامع يلطمن الوجوه وقد صبغن وجوهن بالنيلة السوداء اعلانا لما يكابدون من جوع ، وما يغمر البلاد من قحط ، وانتهز محمد على الفرصة فأرسل مبعوثا الى العلماء بالأزهر ليبلغ الناس ما قرره من تخفيف الضرائب ، وتيسير الأقوات ، واكتسب بذلك رضا المجتمعين ، وشاع النبأ فى الملأ فرضى عنه الناس .

ثم رأت الدولة العثمانية ايفاد وال جديد هو موسى باشا على أن ينتقل محمد على الى ولاية سلانيك وقد فهم محمد على أن المراد زحزحته من مكان يحاول الاستقلال بحكمه ، فجمع العلماء وأخذ يتزلف لهم حتى جمعهم على رأى واحد ، هو الاصرار على بقائه لأنه الذى يستطيع أن يقف أمام المماليك وذوى الفساد والطغيان ، فكتبوا بذلك الى السلطان ، وزاد محمد على فاقترح على العلماء أن يقابلوا قبطان باشا رئيس

البعثة العسكرية التركية ليحـوزوا موافقته حين يعلنـون اصرارهم على بقاء محمد على ليكون لسانهم لدى السلطان ، ورأى أن يستميل هو الآخر قبطان باشا فأرسل اليه هدية ثمينة من الذهب الخالص ، وتم الأمر على ما يريد ، فرجع الوالى المختار كما جاء ولم يترك محمد على البلاد الى سلانيك

أما المماليك ، فقد كانوا شوكة فى سبيل الاستقرار ، وقد بدأ بمعاهدتهم على الوفاق والسـلام مسـتجيبا الى رغباتهم ، وخدعهم بما يسمى (عهد الدم) اذا كان يجرح يده ويجرح يد معاهده من أمراء المماليك ويمص كل واحد دم الآخر ليحل من نفسه محل من اختلطت دماؤهمـا فى الكيان الواحد ، فلا سبيل الى الانتفاض ! وقد بحثت عن أصل تاريخى لعهد الدم هذا فلم أعرفه فيمـا سـبق من العصور ، وليس من اختراع محمد على ، ولكن الظاهر أن العثمانيين قد ابتدعوه فشاع ! أما نتيجة هذا العهـد فهى مذبحة المماليك بالقلعة حين قتل منهم ما يزيد على الألف ، وتتبع محمد على من بقى فى القاهرة والأقاليم ، وأسر النساء والأطفال واحتل القصور والدور •

وقد كانت حملاته العسكرية ، ومؤسساته المعمارية فى حاجة الى مال كثير ، فعمد الى أن يسلك مسلك المماليك فى مصادرة الأموال ، ومضاعفة الضرائب ، وسلب المحصـول الزراعى دون أن يبقى للفلاحين ما يأكلون ! وهو أمر هاج هائجة العلماء فتقدموا اليه يذكرونه بالعهد الذى أخذوه عليه يوم أن نصبوه واليا ، فأسرها بنفسه ساعة الاجتماع، ووعد خيرا ، وفى طريق عودتهم الى المنازل بادر باعتقالهم، وأمر بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط ! وقد كان صاحب

الـكلمة الاولى فى تعيينه وكان يتملقه حينئذ أمام العامة ويقول له : يا والدى ! والسيد عمر أزهرى تعلم فى الجـامع الشريف حتى وصل الى درجة العلمـــاء ، ولكنه لم يشتغل بالتدريس فى الأزهر بل انصرف الى تثمير أرضه فى بسطة عيش ووجاهة محل ، والتف حوله الناس اذ عين نقيبا الأشراف ، أقول ذلك لان بعض الكاتبين لم يشيروا الى أزهريته بل ظنوه ثريا وجيهـا فحسب ، وليس له صلة بالأزهر ، والحق أن الأزهر قد تولى تثقيفه حتى صار به زعيم الشعب ! فاذا ذكر جهاده المخلص فهو حلقة فى سلسلة النضال الأزهرى دون نزاع .

فرغ محمد على من المماليك بعد المذبحة ! وفرغ من العلماء حين اعتقل نفرا ، ونفى من البلاد نفرا آخر ، وقد ظن أنه قطع كل لسان ، وأخمد كل معارض ، ولم يدر أن الله قد هيـــأ له عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الأزهرى النابغة يرصد طغيانه ويسجل تجبيره فى صحف تقرأ على الناس ، اذ كانت يوميات الجبرتى مما يعشقه العامة ويتداولونه يوما بيوم ، حتى ضاق الباشا بناقده، فأصلاه ضروبا من الاهوال كان اشدها على نفسه اغتيال ولده الأوحد ، ويقـول كثير من البـاحثين أن الجبرتى نفسه قد مات مقتولا بمكيدة من الباشا ، وقد بسطت ذلك فى فصل تاريخى ذى براهين (١) .

اخذ الجبرتى يشهد شـهادة الحق فيما يراه بعينه بالقاهرة ، وما يفد الى سمعه من أبناء الاقاليم على السنة

---

(١) من صفحات التاريخ للدكتور محمد رجب البيومى ص ٩٨ وما بعدها تحت عنوان (هل مات الجبرتى مقتولا) .

اصدقائه العدول ، فذكر أن محمد على ألفى الديوان العام الذى انشأه نابليون وجعل عضاءه من العلمـــــاء ليسهموا بالرأى فى شئون البلاد ، ومهما كان الديوان خاضعا لرئاسة الحاكم فوجوده شىء ضرورى لأنه ينقل وجهة النظر المخالفة وان لم يؤخذ بها ، كما يحد شره الحاكم حين يجد أموره مكشوفة تطرح للبحث دون نقاب ، وفى تاريخ هذا الديوان ما يدل على فاعليته اذ أبطل امورا منكرة كانت موضع الاستياء ، وحين التزم محمد على بالعدالة فى وثيقـة تعيينه امام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم كان معلوما أنه سيخضع للشورى ، وأن الديوان رمز لهـــذه الشورى المشتركة بين كبار العلماء والمخلصين ، ولكن محمد على لا يريد أن يقف أحد فى طريقه ، وقد احتج بأن الاعبـاء كثيرة ، وأن اجتماع الديوان يشـغله ! وذلك خـداع مكشوف لأن مناقشة الامور المعقدة مما يساعد على حلها ، والباشا يجتمع بخاصته وأصحاب هواه فى كل وقت ، أفيكون اجتماع الاسبوع شاغلا عن جلائل الاعمال ! هذا ما لحظه الجبرتى وسجله فى وضوح واستيفاء .

وناحية أخرى تنحو هذا المنحى المفرض فى سلوك محمد على ، وذلك أنه حـرص على أن يـكون جميع مستشاريه من غير المصريين ، فانك تجد نائبه أجنبيا وكذلك من يسيرون دفة الامور من أمثـــال باغوص بك مستشار التجـارة ، وكرابيت الارمنى مدير الجمارك ، وسليمان أغا السلحدار منفـــذ الاحكام ومحمود بك الخازندار مستشار المالية ومصطفى اغا كرد المحتسب ، ومن لا نستطيع حصر اسمائهم لكثرتها ! أفــلا يكون بين

هؤلاء رجل مخلص كالسيد عمر مكرم أو عبد الله الشرقاوى وهما صاحبا مجده ، ومؤثلا عرشه ؟

يقول الجبرتى عن بعض هؤلاء الاجانب فى حوادث سنة ١٢٣٥ هـ (انهم ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الاعيان التى فى مصر القديمة وعمروها وزخرفوها، وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب (الكلب) منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة يطردون الناس من أمامه ومن خلفه) .

ويصف بعض مظالم سليمان أغا السلحدار فيقول « كان يتمم عمائره فى أسرع وقت لعسفه وقوة مراسه على أرباب الاشغال والموانة ، ولا يطلق للفعلة الرواح ، بل يحبسهم على الدوام الى باكر النهار ، ويوقظهم من آخر الليل بالضرب ، ويبتدئون فى العمل من وقت صلاة الفجر الى الغروب حتى فى شدة الحر فى رمضان ، واذا ضجوا من الحر والعطش احضر لهم السقا ليسقيهم » .

كما واجه الجبرتى محمد على بكثير من فظائعه المنكرة حين دون مثل هذه الحادثة فى حوادث شوال سنة ١٢٣٤ هـ « كان الباشا ــ أى محمد على ــ بجهة الاسكندرية ، لحفر ترعة الاشرفية ــ المحمودية ــ فأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم بالحبال قطارات ، وينزلون بهم فى المراكب ، وتعطلوا عن زروعهم فى بلادهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم فى المرة الاولى ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل

من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر « ولو فيه الروح »
ولما رجعوا الى بلادهم للحصيد ، طولبوا بالمال ، وزيد
عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة فول ،
وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، والكيل الوافر،
ثم يجيء الطلب للعودة الى الشغل فى الترعة ، ونزح المياه
التى لا ينقطع نبعها من الارض ، وهى فى غاية الملوحة ،
والمرة الاولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة
الحر ، مع قلة المياه العذبة فينقلونها بالروايا على الجمال
مع بعد المسافة » .

ولكى يكون الجبرتى منصفا نجده سجل لمحمد على
ما راقه من اصلاحاته فهو يعترف بهمته فى انشاء مصانع
البارود ، وسبك المدافع ، وصنع القنابل ، وتشييد
السفن ومدارس الهندسة والطب ومصانع نسج القطن
والحرير والصوف والجوخ واعدد المخارط والسندالات
والمناشير والآلات الغربية التى يوجد أمثالها فى الغرب !
كما جمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت
أيدى المهرة من الاجانب ويتعلموا الصنعة ، ويأخذوا
أجرا يوميا وقد عرفت « دار السد » بأنها مجمع صناعى
للعمال تتسع لعشرة آلاف عامل ، كما أجبر الناس على
زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار ، واستقدم
اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير فدعا
ثلاثين أسرة من لبنان ووزعها على المديريات البعيدة ،
فكانت النتيجة ممتازة شجعت على مضاعفة الاشجار
فأثبت الباحثون أن مائة وخمسين ألفا من العمال برعوا
فى نسج الحرير وهيئوه للتصدير .

لقد وقف الجبرتى فى وجه الطاغية موقف القاضى

العادل ، فكان الازهرى الذى دون الوقائع بلسان الحق ، دونها برهبتها المستنكرة أحيانا كثيرة ، وبهجتها المحبوبة حينا قليلا ، وهو يعلم أنه يتصــدى لدكتاتور لا يرحم ! وجبار لا يعدل ، ولكن ارتياح نفسه وهدوء ضميره كان خير جزاء وأوفى ثواب .

الأزهـــــــر
وإرهاصات الثورة العرابية

لم ينهض بعد وفاة الجبرتى من يسجل اليوميات بطريقته المستوعبة ، لذلك كان عهد عباس الاول ومن وليه ذا ضباب ، ولست أعنى بذلك أن التاريخ لم يعلم عنه شيئا فقد سجل الكاتبون شرقا وغربا ما يعطى بعض الدلالات النافعة ، ولكن الاستيعاب المتسلسل على النحو المعهود فى عصر الحملة الفرنسية وعهد محمد على لم يكن من نصيب هذا الزمن ، ومما أغفله المؤرخون ما قام به نفر من العلماء دأبوا على أن يجهروا بالحق ، ولم يخل منهم زمن منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخلو منهم عصر عباس الأول ومن وليه من خالفيه .

على أننا نجـد فى سير ابراهيم الباجورى وحسن العدوى وعبد السلام المويلحى وهم من علمـــاء الازهر الكبار ، فالأول شيخ شيوخه ، والثانى علم بارز فى علمى الحقيقة والشريعة ، والثالث تلميذ حلقاته ، وربيب اساتذته ، أقول نجد فى سير هؤلاء مواقف حرة ، تدل على كفاح الطغيان والجهر بالحق ، والاعتداد بالله وحده، وفى الحرص على تسجيل ما نعلمـــه من هذه المواقف الرائعة ما يمضى بالسلسلة مطردة فى حلقاتها المتتابعة ،

واني لاعلم ان لدى غيري من الباحثين بعض مافاتني ، فاذا كتب كل باحث ما لديه فقد وجد الكثير .

نعلم أن « عباس الأول » قد أوصد المدارس والمصانع والمستشفيات ، وعفى على آثار التقدم الناهض فى عهد محمد على ، وقد قيل فى تعليل ذلك أنه استجاب الى رأى القنصل الانجليزى لتظـــــل مصر فى حاجة الى مستوردات انجلترا ، ولئن تحقق ذلك فى اغلاق المؤسسة الحربية ومصانع النسيج والغزل ، ومدارس التعليم ، فما علة اغلاق المستشفيات ، وتشريد الاسر الكثيرة من مزارعها ، واهمال وسائل الرى والتثمير ! ان السبب يرجع الى تصور حاكم مستبد يرى أن تظل البلاد بعيدة عن كل تقدم حضارى كيلا يقف فى وجهـــه من ينادى بالعدالة والمساواة .

ولم يكن عباس بقادر على أن يوصد أبواب الازهر فلا تنتظم به حلقات الدرس اذ وقع فى روعة أن فى ذلك محاربة الله وحده ، وهو القادر على أن يأخذه أخذ عزيز منتقم ، لذلك كان يفد الى الازهر فى خشوع ، ثم يهيأ له كرسى من الخشب ليستمع الى ما يلقى اســـــتماعا صوريا ، لأن دروس المنطق والتوحيد والاصول والبلاغة والنحو حينئذ ليست مما يسـهل تحصيله فى جلوس ساعة أو ساعتين ، ولعـــله كان يراقب سير الدراسة فحسب ليعرف هل يخوض الخائضون فى حلقــاته فى غير حديث العلم ، وليطمئن على أن النقد لا يتطرق اليه فى حلقات هذا المسجد الوحيد ، وقد بقى وحدة منارة العلم والتوجيه .

هذه النظرة المهادنة الى علماء الازهر لم تجعل شيخ

الازهر الاكبر يفضى عن قول الحق أمام عباس ، وشيخ الازهر هو العلامة الاصولى الفقيه المحدث الشيخ الجليل ابراهيم الباجورى وحواشيه العلمية على شروح العلماء فى فنون كثيرة ذائعة مشتهرة تدل على فضله الكبير ، وقد وصل الى علمه أن عباسا يضطهد بعض الاقباط (١) من المصريين زاعما بذلك أنه ينصر الاسلام ، فرأى الشيخ الاكبر أن يواجهه بالحق فيما يجور ، فذهب الى لقائه وأخبره بحكم الاسلام فى الذمى والمعاهد ، وقرأ عليه آيات القرآن وأحاديث الرسول ، واستشهد بوقائع مأثورة عن الخلفاء من أمثال أبى بكر وعمر وعلى ! وقد وجد منه ترددا وشكا ، فانتقل من الماضى الى الحاضر ، فذكر أن الفرنسيين يحتلون الشعب المسلم فى الجزائر كما سبق أن احتلوا مصر ، ولئن جاءهم أن مصر تضطهد ابناء دينهم ، فلابد أن يقوموا بالمثل ، فيكون الباشا بعمله هذا مسيئا الى أبناء دينه ، وقد استجاب عباس بعد أن سمع كلام الشيخ ! واستجابة عباس هنا ذات دلالة حاسمة على قوة اقناع الشيخ الباجورى لان الباشا جبار يركب راسه ، وقد اضطهد نفرا من أبناء الاسرة الحاكمة ، وهم أهله وذووه ، وأخذ الوصوليون يتقربون اليه بالوشاية الكاذبة عن هؤلاء ، فاذا استطاع شيخ الاسلام أن يصده عن ظلم المواطنين من الاقباط فقد نجح فى مسعى حميد وثانية نذكرها للشيخ الكبير مع رجال الحكم فى عهد عباس (٢) ، فقد عرف أن طلاب الازهر فى عهده كانوا يعفون من الخدمة العسكرية لانقطاعهم الى

---

(١) من صحائف التاريخ للمؤلف ص ١٣٥ .

(٢) كنز الجوهر فى تاريخ الازهر ص ١٩٢ ، للشيخ سليمان الحنفى .

طلب العلم ، وقد أراد نفر من مشايخ القرى أن يبطل هذا الاعفاء فأوحوا الى رجال الأمن أن أكثر النازحين الى الازهر لا يرغبون فى علم أو دين ، ولكنهم يبتعدون عن الخدمة العسكرية بحجة الانتساب الى الازهر ، وفوجىء اساتذة الازهر ذات صباح بمن يهاجمون الطلاب ، ويقبضون عليهم كى يلتحقوا بالجيش ! وكان ذلك فى عهد سعيد باشا ، واتصل الامر بشيخ الازهر العلامة الباجورى فتقدم الى المسئولين ونهرهم فى غضب ! وهددهم بالثورة العلنية حين يدعو الجموع الى ذلك ، ورأوا اصرار الشيخ الغاضب ، فانسحبوا مخذولين ! ولم تكن الخدمة العسكرية حينئذ حماية للوطن بعد أن أغلقت المصانع الحربية ولكنها كانت وسيلة لتهيئة من ينفذون أوامر البطش ، ومن يتحكمون فى الفلاحين ناهبين غاصبين ، وطلب العلم حينئذ أولى وأرشد .

ونترك عباسا وسعيدا الى اسماعيل ! فنذكر موقفا رائعا لعالم جليل صدع بالحق أمامه فى اعتداد ، والموقف مشتهر ذائع كتب عنه الاستاذ عباس محمود العقاد فصلا جيدا فى مجلة الهلال ونقله بعض كتب المطالعة للمدارس عنه ، وقد أسنده العقاد الى العالم الكبير الشيخ حسن العدوى ، ولكن الاستاذ الشيخ محمد سليمان وهو أول من سجله من الكتاب فى مؤلفه الحافل (من أخلاق العلماء) (١) لم يحدد اسم ذلك البطل الصريح ، فلعل لدى العقاد فى تحديد اسم الشيخ العدوى ما جعله يجزم به عن يقين .

قال الأستاذ محمد سليمان عن محدثه الكبير ببعض

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٠ ط أولى .

التصرف اليسير : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين القـواد والجند ضاق صدر الخديو اسماعيل لذلك ، وركب يوما مع شريف باشا ، وهو محرج ، فأرد أن يفـرج عن نفسه ، فقال لشريف باشا ، ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة ، فقال شريف : أعمد الى صحيح البخارى لأسمعه من عالم طاهر الفم ، فيفرج الله عنى ، فارتاح الخديو لما سمع ، وطلب من شيخ الازهر أن يقرأ نفر من العلمـاء صحيح البخـارى فى القبلة رغبة فى النصر ؟ وقرىء البخـارى دون أن يحدث ما يرجو الخـديو من الانتصـار فهاج هائجه وجمع العلمـاء ليقول : اما أن الـذى تقرءونه ليس صحيح البخـارى ، او انكم لستم كعلماء السلف الصـالح ، لان الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا فسكت العلماء دون رد ، ولكن شيخا فى آخر الصف صاح به : « منك يا اسماعيل ، فاننا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم انه قـال : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » فوجم العلماء، وانصرف الخديو صامتا ! ولم يمض غير وقت يسير حتى حضر شريف باشا وطلب القائل ليذهب معه الى الخديو ، فقابله فى أدب وجلس امامه على كرسى مماثل. وابتدأ اسماعيل يقول : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ فقال العالم الحر فى صراحة : يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليست الخمر مباحة ؟ أليس الزنا برخصة ؟ فكيف ننتظر نصر السماء ؟ سكت الخديو حائرا ثم قال فى أسف : وماذا

نصنع ؟ وهذه مدنية الاجانب وقد عاشرونا ؟ قال الشيخ : اذن فما ذنب البخاري ؟ وما حيلة العلمـــاء ؟ فأطرق اسماعيل مفكرا ، وقال : صدقت صدقت : ثم رجع الشيخ الى زملائه وقد يئسوا منه كأنما ولد جديد (١).

لا يغيب عن القــارىء أن اسماعيل كان يحكم دون دستور ، وأن كلمة منه تقذف بالآمن الى مهب الخطر ، وانه تعرض لسماع ما لا يتصور أن يواجه به ذات يوم ، فاذا تجرأ عالم على مجابهته بما لا يحب ، فتلك شجاعة لا تقف عند حد ، اذ لا يأمن على دمه أن يسيل .

أما عبد السلام المويلحي فقد قرأ في الازهر على كبار شيوخه اذ كان من أساتذته الأعلام الأشموني والسقا والبحراوي وقد اســتمر في الدراسة حتى أجيز له بالتدريس ! والاجازة حينئذ لن تكون الا بعـد مجلس علمي حاشد يقرأ فيه المتقدم للاجازة درسا على مسمع من كبار العلماء ، حيث يوجه كل عالم سؤالا أو أسئلة تظهر معدن هذا الممتحن ، وقـد كان هـذا المجلس من الشدة والدقة بحيث لا يطمح اليه غير من وثق في نفسه أكبر الوثوق ، وكم زيد عنه من نبغاء لم يبلغوا الدرجة المنشودة لدى أساتذتهم الكبار ! نقول ذلك لأن عبد السلام المويلحي بعد أن أجيز بالتدريس ، ترك الازهر الى الاعمال التجارية الواسعة بعد وفاة والده حتى أصبح كبير تجار القــاهرة ، وقد تتلمذ في الوطنية على جمـال الدين الافغاني ، ففهم الصحيح من معاني الحكم الدستوري العدالة والمساواة ، حتى اذا صار عضـــوا بمجلس

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٢ .

شورى النواب تزعم معارضة الحكومة الناطقة بلسان الخديو ، وأعلن المخالفة التامة لكل استبداد يأخذ طابع الشورى المظهرى ، وأنقل عن كتابى (من صفحات التاريخ) بعض ما يشير الى هذا الموقف مع ايجاز لامح (١) :

لقد تقدم رئيس الحكومة مصطفى رياض باشا الى مجلس الشورى يعلن شكره للمجلس على ما أبدى من نشاط ! ثم يتلو الامر الصادر بحله لانقضاء مدته المقررة، وظن أن أمر الخديو لا يحتمل النقاش ، ولكنه فوجىء بعبد السلام المويلحى يقول :

ـ لا أدرى معنى لشكر الحكومة ، فاننا لم نقم بعمل الى الآن يكون له شبه فائدة تعود على البلاد ، فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس !

فذعر رياض وعاجل يصيح :

ـ ماذا تقول حضرتك ؟! مستحيل أن يفض المجلس ؟! كيف يكون مستحيلا وقد أمر به سمو الخديو ؟! أفاهم أنت مسئولية ما تقول ؟! ..

ـ فرد عبد السلام المويلحى بكل ثقة : أنا فاهم جيدا ما أقول ، وأقدر مسئوليته دون انكار .

دهش رياض واتجه الى النواب يصيح : أتوافقون على هذا الكلام ؟

فارتفعت الاصوات من كل جانب بموافقة المويلحى ، وصاح أحد النواب : أنا موافق على ما قاله المويلحى وما سيقوله من بعد ؟

---

(١) من صفحات التاريخ ص ١٣٩ للمؤلف .

فانفجر رياض يصيح : أنتم عصاة ، وتقدم عبد السلام المويلحى يقول :

ـ لا تغضب يا باشا ، لقد ظهر لك موافقة اخوانى لأقوالى ، وهم جميعا يعرفون مسئولية ما يقولون ، أما امر الخديو بحل المجلس فمبنى على غلطة واضحة ، لان الحكومة تستند الى مضى ثلاث سنوات من بدء انعقاده مع أنه لم ينعقد الا بتاريخ ١٨٧٨/١٢/٢٦ فلم يمض عليه غير عام واحد ، فكيف أصبحت المدة ثلاث سنوات .

فأجاب رياض متلجلجا : ان مدة انعقاد المجلس هى من بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا الخديو فى حفلة طنطا !

فعاجله المويلحى يقول : مالنا وحفلة طنطا يا باشا ! ما مقدار رسميتها الآن ؟ عزومة شرفها سمو الخديو وتناول فيها الطعام ولم يدون بها أى حوار قانونى ، تكون بعد ذلك ابتداء للانعقاد ! ما هذا ؟! . .

خرج رياض عن طوره وقال : اذن أنتم بعمائمكم وقفاطينكم تقلدون نواب فرنسا !

فارتفعت أصوات الاحتجاج الغاضب من كل مكان ! وتقدم عبد السلام المويلحى ليقول لرياض :

ـ أعلم يا باشا ان أهل وطنك ليسوا بأقل شعورا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات من نواب فرنسا ، والمسألة ليست مسألة ثياب تلبس ، ولكنها مسألة عقول وأفهام ! ونحن جميعا قرأنا فى الازهر الشريف علوم المنطق والبلاغة والمناظرة والجدل ! فلسنا كما تتوهم !

وكانت فرصة تركت للشيخ الصباحى أحد علماء الازهر وعضو مجلس الشورى أن يقول : أن رياض باشا تعلم فى الاورطة العسكرية وجاء يفتخر !

لم يجد رياض بدا من الانسحاب ، فأسرع بالخروج ، وقدم استقالته فسقطت الوزارة بقوة المعارضة ، وزعامة المويلحى .

لقد كان هذا الازهرى الجرىء أول معارض دستورى شهدته مصر فى اول برلمان مصرى ! وحسبه ذاك !

دور الأزهر
فى الثورة العرابية

كانت الثورة العرابية ثورة شعب يهب مطالبا بحريته مستردا كرامته السليبة ، وان بدأ بها الجيش المضطهد فأعطى انطباعا مبدئيا بأن الثورة ثورة جيش ، ولا ننكر أن الضباط الاحرار بقيادة الزعيم البطل أحمد عرابى قد هبوا مدافعين عن اضطهادهم وسوء ما يلقون من معاملة الرؤساء ، ولكنهم لم يطالبوا بحقهم وحده ، بل طالبوا بحرية الشعب جميعه ، ووجدوا من التأييد الشعبى الساحق ما جعل الثورة ثورة شعب بأثره ، فاذا كان اضطهاد المصريين بالجيش سببا مباشرا لاندلاع الثورة العرابية فان سوء الوضع السياسى فى مصر قد أرث الحريق فانتشر فى كل مكان .

يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تحليل الاسباب الدافعة الى هذه الحركة الواثبة : فى كتابه الرائع « الثورة العرابية » .

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ، ولا قضاء ينصف المظلوم ، ويعطى كل ذى حق حقه ، ولا حرية ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم ، وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل

الاموال ، او أداة للقسوة والتعذيب ، حقا أن رياضا أمر بابطاله ، ولكن أوامره فى هــذا لم تنفذ تنفيذا تاما وبقى الكرباج فى كثير من النواحى أداة للحكم ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنـــــافع والاعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه من الحكام والامراء ، وكان النفى الى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ، ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون أخرى بل كانت عامة يعانيها العامة والخاصة ، ولم ينج من شرها الا من تشملهم رعاية أولى الامر ، على أن هــذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم » .

ولسنا بصدد البحث التفصيلى فى أسباب هذه الثورة ولكننا نتحدث عن دور الازهر فى نصرة الحق حين أيد الثورة واشترك فيها ، وتعرض لمصاعب كثيرة ، وقد كان زعيم الثورة أحمد عرابى أحد أبناء الازهر الذين نشأوا فى الريف المصرى بالشرقية فى أسرة متدينة ، اذ كان والده من علماء الازهر قضى عشرين عاما من عمره يتلقى علوم الدين واللغة والمنطق فى رحابه حتى صار موضع الافادة والتوجيه ، وحين بلغ ولده أحمد عرابى الخامسة أرسله الى مكتب القرية فحفظ القرآن وألم بالمبادىء التــامة للكتابة والقراءة والحساب فى جو دينى أزهرى ثم التحق بالازهر الشريف فدرس به مبادىء الفقــه والنحــو ، وصادف أن أمر الوالى سعيد بالتحاق أولاد المشايخ فى القرى بالعسكرية فترك أحمد عرابى الازهر الى الحربية وانتظم فى سلك الاورطة الســعيدية المصرية بقناطر فم البحر ثم توالت الايام فأتم تعليمه العسكرى وعين بعــد

امتحانه فى درجة (بلوك أمين) ومنها الى (ملازم ثان) حتى انتهى الى ما انتهى اليه من نظارة الحربية وزعامة الثورة التى نسبت اليه وعرفت باسمه ولا ريب أنه انتفع كثيرا مع زملائه الاحرار بما بعثه جمال الدين الافغانى فى الشعب المصرى حين أخذ يجمع طلاب الازهر حوله ليعطيهم الى جانب دروس المنطق والحـــكمة والتاريخ دروس الوطنية الصـــــادقة ، وليشرح لهم مساوىء الاستعباد الداخلى والاحتلال الاجنبى ثم يشجعهم على الكتابة فى الجـــرائد لينشروا فى الشعب المصرى روح النقمة على الاضطهاد ، فطلعت الصحف المختلفة بمقالات متتابعة لتلاميذ جمال الدين تبعث ضوءه فى كل مكان ، وبعد أن كانت هذه الجرائد مقصورة على الاخبار المحلية والمدائح الخديوية ، وتنقلات الوزراء والحكام أخذ أمثال محمد عبده وابراهيم اللقانى وعبد الكريم سليمان وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى وجميعهم من طلبـــــة الازهر يتحدثون عن حرية الشعب ، وسلطة الحاكم ، وتدخل الاجنبى ، ويدعـون الى تأليف حزب وطنى سياسى ، وتمكين مجلس شورى النواب من حقـه الدستورى ، وبذلك أصبحت الجـرائد مدرسة سياسية يديرها من بعيد جمال الدين ، ويقوم بالتدريس فى فصولها تلاميذ الازهر ونجباؤه ، ومن ينضمون اليهم من خيرة المثقفين ، ولعل أظهرهم جميعا هو الاستاذ الامام الشيخ محمـد عبده رحمه الله ، اذ لفت الانظار بمقالاته الجـريئة فى صدر الأهرام ثم اختاره رياض باشا للقيام على تحرير الوقائع المصرية فجعلها منارة للتوجيه الدينى والارشاد السياسى ، وأخذ ينتقد كبـــار المسئولين من الوزراء

وحكام الاقاليم ، ورؤساء الادارات اذا رأى فى تصرفاتهم ما يوجب النقد ، حتى ضجروا من هذا الصوت الجديد، فطالبهم محمد عبده بالرد على النقد بدل الضجر والاحتجاج ! يقول الاستاذ محمد عبده بعد حديث مفيد عن رسالته بالجريدة الرسمية .

« لم يضيع رئيس التحرير - يعنى نفسه - فرصة فى انتقاد نظارة المعارف ، وسير التعليم ، واظهار معايير التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح، فغضب لذلك ناظرها (ع . ا . باشا) وكان بطىء الحركة ، خامد الفكر ، بعيدا عن الاحساس بحاجة الوقت فاشتكى الى رياض باشا من احتفاء الجريدة الرسمية به ، وتنقيبها عن مواضع الخال فى أعمال نظارته ، فلم يسمع له ، بل أجاب بأن الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره فسكت ، لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد فى سبيل انتقاده » (١) .

واذن فقد تعبأ الشعور الوطنى بما كتبه العلماء فى الجرائد ، وما أذاعوه فى المجالس حتى قامت الثورة فكانوا جنودها الاوفياء ، ولسنا هنا بصدد تدوين أحداثها المثيرة ولكننا نشير فى ايجاز الى بعض المواقف الهامة لأبناء الازهر فى هذه الانتفاضة الواثبة لينكشف الحق الصريح .

انتشر الوعى الوطنى ، واحس الخديو أن القوة

---

(١) مذكرات الإمام محمد عبده (كتاب الهلال) ص ٩٥ .

الحقيقية ليست معه ، لأن الذين يملكون رايه من سفراء انجلترا وفرنسا وبعض الشراكسة والاتراك يلقون تيارا جارفا من أنصار الحركة العرابية ، لا سيما والحكم فى أيديهم ، لان وزارة محمود سامى البارودى وزارة وطنية، ووزير حربيتها قائد الثورة أحمد عرابى ولا خلاص من الازمة الا بسقوط الوزارة ، وهذا ما اشار به سفير الدولتين الدائنتين ، انجلترا وفرنسا ، ولم تكن الاشارة شفوية هامسة بل تعدت المشورة الى الطلب الرسمى فى مذكرة تطلب ابعاد أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى الى أى جهة من جهات القطر خارج القاهرة، ويتبع ذلك سقوط وزارة محمود سامى البارودى وتعيين وزارة موالية للأجانب والتصر ! وكان المنطق الطبيعى أن يرفض أحمد عرابى وجميع أعضاء مجلس الوزارة هذا المطلب التعسفى ، ولم يكونوا وحدهم فى الرفض حيث اجتمع قادة الرأى من العلماء والكتاب معهم للتداول، ثم صمموا على المقاومة الصريحة للاستبداد ، وجاء الشيخ محمدعبده فوضع قسما وطنيا أداء الجميع ، ليمثل عهدا أمام الله بالاخلاص للوطن ، ثم تطورت الامور فاستقالت وزارة البارودى وأصبح الضباط وجها لوجه أمام مؤامرة محكمة من الاعداء ! وهنا يؤدى الازهر دوره الوطنى الرائع حين يجتمع شيخ الازهر العلامة الانبابى مع فريق من كبار العلماء أمثال الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ أبو العلا الحلفاوى ليتشاوروا فى المأزق الحرج ، ولينتهوا الى وجوب تأييد الثورة العرابية بكل ما يملكون ، فدعوا الى عقد اجتماع

عام في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ م حضره كبار العلماء ممن تقدم ذكرهم مع كبار الضباط والنواب والسياسيين من أمثال شريف باشا ليدرسوا طلب الخديو فى ضرورة قبول المذكرة الانجليزية الفرنسية ، ودار البحث الصريح فى جو عاصف مليء بالحذر والاشفاق من التآمر والغدر، ورأى الخديو أن يباغث الحاضرين بوجوده ظانا أن تأثيره الشخصى سيحدث بعض الانقسام فى الرأى ما بين مؤيد ومعارض ولكن طلبه عصمت باشا استمع الى رغبة الخديو فى ضيق ، حين رأى قبول المذكرة الاجنبية ، والخضوع التام لما تمليه فرنسا وانجلترا ، فهب واقفا ليخاطب توفيقا بقوله الصريح : اننا مطيعون لجناب السلطان العثماني وللجناب الخديوى ، ولكن لا يسهل علينا تنفيذ ما بالمذكرة الاجنبية اذ لا حق لانجلترا وفرنسا فى التدخل فى شئوننا الخاصة ، دون الرجوع الى الباب العالى ، ونحن متمسكون بقيادة أحمد عرابى ، وقام الشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالازهر وندد بالتدخل الاجنبى ، فذكر أن الوطن لا يثق بغير أبنائه المخلصين ، وان أحمد عرابى هو ممثل البلاد وزعيمها الصادق ، وتطلع الخديو فى وجوه العلماء فرآهم على اتفاق تام ، وأن ما قاله الشيخ محمد عليش صادف منهم الارتياح ، وحين لم يستجب الخديو الى ما قرره المجتمعون من رفض المذكرة بادر طلبه عصمت بالانسحاب دون استئذان وتبعه شيخ الازهر ورفقاؤه من كبار العلماء ومن ورائهم القواد والضباط ! وأصبح الموقف سافرا لا يحتاج مواربة أو مداراة ، فقد عرف الخديو أن الشعب قد

دبت فيه روح اليقظة ، وأن عرابى باشا لا يقف وحده ، وأن الازهر من أكبر مؤيديه ، فاستعان بانجلترا وفرنسا من جديد ، ورأت انجلترا الفرصة سانحة لتثبيت أقدامها ، وتحقيق مطامعها الاستعمارية القديمة قد أخفقت حملتها السابقة فى عهد «محمد على» على رشيد ، فأرسلت اسطولها الى الاسكندرية ليضربها بالقذائف وليحتل جنودها أماكن متعددة منها ! وماذا يستطيع الاحرار غير المقاومة المستميتة أيا كانت العاقبة ، وقد اطمأن الخديو الى حماية الاعداء فأصدر أمره باقالة عرابى ، واجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية ١٨٨٢ ، وقام الامام محمد عبده بالقاء كلمة مستفيضة تسلسل الاحداث وتثبت خيانة للخديو للثورة ، وتابعه على الروبى باشا احد ابطال الثورة فألقى كلمة مماثلة ، وأمام هذه الحقائق السافرة أصدر علماء الازهر فتواهم الجريئة بمروق الخديو وخيانته منذ التجائه الى عدو البلاد مما يوجب عزله وادانته ، وقد وقع على الفتوى كل المجتمعين من علماء الازهر ، ونذكر منهم الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ عبد الله الدرسنارى ، والشيخ محمد عليش والشيخ يوسف الحنبلى والشيخ عبد الهادى الابيارى والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ خليل العزازى . والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد القلماوى ، والشيخ زين المرصفى ، والشيخ حسين المرصفى ، والشيخ سليم القلعاوى ، والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ أحمد الخشاب ، والشيخ عبد القادر الرافعى والشيخ عبد القادر الدليشانى ، وما انتهى الاجتماع حتى قامت

حركة الدعوة الى الجهاد يحملها شباب الازهر مقتديا بكبار علمائه ، وقد بذل الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وعبد الهادى الابيارى وهم من حملة القلم وأرباب اللسان جهدا بارعا فى العمل على جمع الكلمة ، ومهما تكن النتيجة قاسية فانها شهدا الله كانت مشرفة وضيئة ناصعة لشعب أعزل رفض الذلة والهوان وحارب بيده وجسمه حديد العدو وناره ، فعلم الناس جميعا ، أن الاحتلال لم يتكرس الا بالخيانة والتواطؤ والا بعد أن فنيت آلاف الارواح دفاعا واستشهادا ، وفى هذا أبلغ رد على من يحاولون الاستخفاف بهؤلاء الابطال الكماة الذين زاروا مندفعين الى القذائف الحامية دون مبالاة ، حتى تناثرت الاشلاء فى التل الكبير شاهدة بالكرامة ، ناطقة بالاستبسال ، فجعلت الهزيمة شارة فخار ، ووسام اباء، وهذا ما عناه الشاعر الوطنى الكبير الاستاذ فخرى ابو السعود حين قال فى معركة التل :

أعد ذكر ماضى النيل للجيل منشدا
فما أعذب المجد الأثيل المرددا
نتيه بماضينا القديم تفاخرا
وأحر بأن يروى الحديث فيحمدا
ولم ار يوم التل عارا وسبة
ولم اره الا أغر مخلدا
انخجل أن قمنا نذود عن الحمى
ويسحب أذيال الفخار من اعتدى
تدفق من عبر المحيط مهددا
فما حفلت آباؤنا من تهددا

وقالوا شـــباة السيف دون عدونا
وان يك عرض البر والبحـــر ازيدا
اباء تليد المجـــد قـــر له رضى
وقر له عظم الفـراعين ملحـــدا (١)
فيا من رأى أبنـــاء مصر اذا انبروا
الى غول الاســـتعمار صفا مجردا
على حين ماجت خيله وســـفينه
ولم يبصروا في الشرق والغرب مسعدا
ســـلام على شـــهم تولى زمامها
أعف الورى قصـــداً وانقاهموا يدا
جـــريرته أن رام مصر عـــزيزة
وشاء لهـا أن تستقل وتســـعدا
ســـتذكره مصر الفتية ما ابتغت
لدى الحق عهدا أو لدى المجـد موعدا
عسى ذكرنا رغم الهـــزيمة احمـدا
سيبعث فينـــا للغنيمة أحمـــدا

وبعد انتهاء الثورة تعرض زعماؤها للمحاكمة ، فـكان نصيب العلماء فادحا اذ منهم من سحب على وجهه واقتيد الى العدوان على كبر السن ووهن العظم فمات بعد أن عذب ورمى به في مستشفى بدائى وهو شيخ المالـكية الشيخ محمد عليش رحمـــه الله ، ومنهم من عذب وصودرت أمواله ودياره ثم رمى به الى المنفى السحيق ، ومن هؤلاء العلماء الابطـال الشيخ عبد الرحمن عليش وقد نفى الى الآستانة الشيخ عبد القـادر الدليشاني

(١) أى العظم فى اللحد ، وتقرأ « ملحدا » بفتح الحاء .

ومحمد عبد الجواد القاياتي واحمد عبد الجواد القاياتى ومحمد عبده وقد نفوا الى بيروت ومحمد الهجرسي وقد نفى الى مكة المكرمة ويوسف شرابه وقد نفى الى مكة مع تجريدهم من الرتب والالقـــاب والمناصب وعلامات الشرف ! وهى أزياء خارجية لا قيمة لها عند العقلاء ، لأن هؤلاء العلماء الافاضل لم يجردوا من كرامتهم وعلمهم وشجاعتهم فظلت كلها باقية تضفى عليهم لألاء السعادة وطمأنينة النفس ، وراحة الضمير ! وقد أبدت محاكمات العلماء خوارق باهرة حار لها أعوان الاستعمار أنفسهم ، وفغرت أفواههم دهشا واستغرابا ، وسأنقل عن كتابى « من صحائف التاريخ » (١) موقفا رائعا لعالم باسل أزهرى جرىء هو الشيخ حسن العدوى قد مهدت له بكلمات يسيرة تكشف عن مناسبته اذ أقول « خيم على مصر ظلام ظالم حين دخل توفيق القـــاهرة ، مدججا بالحراب الانجليزية ، ومن فوقه العلم البريطانى يرمز الى احتلال بغيض يزهق الانفس ، ويحرج الصدور ، وقد انقلب المسرح فجأة فأصبحت الادارة والرياسة فى أيدى خونة مرتشين تفيض أردانهم بالنتن الموبق ، وتسيل أكفهم بالمال الحرام ، وقد شاعت السخرية المريرة أن تقيم للأبطال من أحرار الوطن محاكمة ارهابية تقتص من الكرامة والحرية والعـــزة ، فتسوق محمود سامى البارودى وأحمد عرابى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت، ومحمـــود فهمى وعلى الروبى ومحمد عبده الى أقفاص الاتهام مكبلين مصفدين ، وتقـــدم للاوغاد الخونة من جواسيس الاســـتعمار وأذناب القصر كسلطان وخنفس

(١) من صحائف التاريخ للمؤلف ص ١٣٦ .

والطحاوى أوسمة المجد ونياشين النباهة ، وذهب المعز ، فأى حق رفع ؟ وأى باطل يقام ؟

جاء دور الشيخ حسن العدوى فى المحاكمة ، وقد خيم الارهاب فى كل زاوية ، وأخذ الطغيان بكل خناق ، وتماهد الخونة على أن يذلوا كبرياء هؤلاء الاباة ، متوهمين أن الشجاعة ستذوب فى ساحة البطش فتنكس رءوسا كانت مرفوعة ، وتخفض أصواتا طالما جلجلت بالزئير وينظر القاضى متشامخا الى الشيخ الوقور ، وقد وقف أمامه فى ثبات واقدام يصبح به ـ أأنت وقعت على المنشور ؟

فيقول الشيخ حسن العدوى : أى منشور تريد ؟

ـ المنشور الذى يقضى بعزل الخديو عن أمر البلاء .

فيرتفع صوت الشيخ الجرىء : لو جئتم بمنشور جديد يقضى بعزله لوقعته فورا دون تأجيل لقد خان توفيق وطنه واسلامه !

وترتج المحكمة ارتجاج الباطل امام زلازل الحق ، ويصيح القاضى متسائلا فى حيرة : أسمعتم ما يقول ؟

فيزأر الشيخ ثانية : الخديو خائن خائن !

وينظر القوم بعضهم الى بعض ـ وأكثرهم مصريون للاسف ـ فيجدون قطرات الخجل تملأ وجوههم الشاحبة ، وتمتمات الحيرة تعقد ألسنتهم فما يجدون ما ينطقون ؛ وقد وقف المحامى الانجليزى (برودلى) موقف الاعجاب من الشيخ ، ثم رنا الى أصنام المحكمة الجالسين مجالس القضاة كالساخر المستهزىء ، وكأنه يقول لهم : هل تجرؤون أن تكونوا مثله هل تجرؤون ؟

بعد الاحتلال الإنجليزى

حين أخفقت الثورة العرابية وداهم الاحتلال البلاد عمر الأمة المصرية شعور بالحزن الفاجع ، وشعر كل مواطن أنه فقد أعز شيء لديه ، وكان شعور الانسان بينه وبين نفسه وبينه وبين خلطائه ممن يبدى لهم سريرته شعور من رجع الى داره بعد أن دفن خير أحبائه ، فقد مات خيرة الشباب نضرة فى المعارك غير المتكافئة . ونفى سادة المصريين وكبار علمائهم الى حيث لا يراهم أحد ، وأصبح الخونة ســــادة يلون المناصب ، ويتحكمون فى رقاب الاحرار وأراد الله أن تعم النقمة نفراً من الأذناب الذين خانوا البــــلاد ، حيث رأوا من المحتلين أنفسهم من ازدروهم اذ عرفوا قيمتهم الحقيقية الهابطة فى دنيــا الشرف والامانة والفداء ، ولنا أن نشهد بسلطان باشا الذى ساعد على الخيانة مســاعدة غادرة ، حين وشى بالعرابيين الى أعدائهم ، وقاد كتائب الانجليز ليدلهم على الطرق نحو التل الكبير وكفر الدوار ليناز لوا الاحرار من الثائرين ، ثم أخذ يكاتب مشايخ العرب ليجمعهم فى صف واحد أمام الوطنيين ، وكذلك بذل الجهد الجاهد في استمالة ضعفاء النفوس من العمد والاعيان وقليل

ما هم ، ثم حظى برضا الخديوى توفيق عقب انتهـــاء المعارك ، وأخذ يبدى من الفطرسة والاستعلاء ما دل على حقد أسود ، ولؤم بغيض ، ثم كانت كارثة مروعة حين انتدب الى الاشراف على الشواطىء ومراقبة مياه النيل فى الوجه القبلى أيام الفيضان ، انتدبه المحتلون الى هذا العمل بعد أن ظن أنه سيرأس مجلس النظار ، وسيكون الرجل الثانى بعد الخديوى محمد توفيق ، وقد صدع بالامر على غيظ وحاول لقاء المعتمد البريطانى فلم يجـد لديه بارقة احترام ! فزاد همـــه وتضاعفت أمراضه وأدركه الندم ولكن بعد ماذا ؟

وقد نفى علماء الازهر مع المبعدين ، فما وهنوا ، بل كان منهم من ضاعف العمل لمحاربة الاحتلال وهو منفى عن البلاد ، وتلك جرأة ممتازة ، لان الذى يقوم بمناهضة الاحتلال ومعاندة الخديوى وهو مبعد عن مصر ، ستسوء سمعته لدى الحاكمين ، وسيصرون على ضرورة ابتعاده الدائم ، دون أن يجد من يشفع له فى العودة الى البلاد ونذكر من هؤلاء الاستاذ محمد عبده فقد نفى الى بيروت، فلم يسكت ، بل واصل المعارضة الغاضبة لأعداء الاسلام والمصريين ، ثم رأى أن يغادر بيروت الى باريس ليجتمع مع أستاذه جمال الدين الافغانى فيعيدا ما بدءا به من مناهضة الاحتلال ، ولك أن تتصور جهاد غريبين فقيرين لا يملكان شيئا ذا بال ثم همـا بعد ذلك يصـدران مجلة العروة الوثقى لمحاربة الاحتلال ، ويقابلان أســاطين الساسة من الوزراء والنواب ويكتبان فى الصحف العالمية منددين بفظائع الاستعمار فى كل بلد اسلامى دون ابطاء

بل سافر محمد عبده الى انجلترا نفسها ليصـــــارع الاستعمار فى عقر داره ، وقد كتب فى صحيفة (البال مال) يقول فى صراحة سافرة مخاطبا الانجليز (١) :

« اننا نرى انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ، وقد قضيتم على عناصر الخير فينا لـكى تكون لـكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا ، فلم لا تغادرون مصر ؟ لقد علمتمونا شيئا واحدا هو التضامن فى مطالبتكم بالجلاء ، شـــكونا من الاتراك لانهم أجانب عن أوطاننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كتقدم الاوربيين فى طريق الحرية لكننا نعلم أن بمصر الآن ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الاتراك أن لنا رجاء واحدا وهو أن تغادروا بلادنا الى غير رجعة .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق : قال ان توفيقا أساء الينا ابلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا . ولا يمكننا أن نشعر ازاءه باحترام !!

نقل الاستاذ العقاد هذا الرأى الجرىء ثم عقب عليه بقوله (٢) :

« قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفيا عن بلاده أبدا ، لأنه لن يعود على غير رضا الخديو صاحب الســـلطة الشرعية ، ورضا المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد

(١) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٢ .
(٢) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٣ .

بقي فعلا غير مأذون بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدد لنفيه وهو ثلاث سنوات » .

عاد الامام الى مصر فأدرك ان واجبه الاول أن يكون قائدا للتربية الصحيحة في البـــــلاد ، اذ أن سيطرة الاحتلال لا تسمح للشعب الاعزل بالمقاومة السريعة ! ولابد أن ينشأ جيل ناهض يعتنق مبادىء الحـــــرية والكرامة والاستقلال ، وقد مات توفيق ، وجاء ولده عباس ، وكان شـــابا يتطلع الى الخـــــلاص من قبضة الاستعمار ، ولكنه فوجىء بأغلال تعض يده وتكبل قدمه فلم يستطع شيئا ، ورأى أن يتصل بأصـــحاب الرأى ليساعدوه على المسير ، وكان في طليعة هؤلاء الاستاذ محمد عبده ، وقد أخلص له المشورة ، ودعاه الى اصلاح الازهر والاوقاف والمحاكم الشرعية ، وهى الجهات الثلاث التى بعدت عنها سيطرة الاحتلال لأن اتصـــالها بالدين الاسلامى جعل لهـــــا حساسية خاصة لدى قـــوم من المستعمرين لا يريدون أن يتدخلوا في أمور لا يكسبون شيئا من ورائها . ثم هم لا يخسرون شيئا أيضـــا ، اذا تركوا للحاكم الشرعى أن يصلح ما يراه معوجا في دائرته المحدودة ، ولو كان عباس الثانى صادق النية في الاصلاح لسارع الى تنفيذ ما أشـــار به الاستاذ الامام ، ولكنه أراد أن يكون ذا مصلحة شخصية فحسب ، حين يولى أمور الازهر أناسا يأتمرون بأمره دون قدرة على المعارضة الناصحة ، والمجاهرة الصريحة ، وحين يجعل أعضاء مجلس الازهر وسيلة لـــــكسب مادى خطير يرسم له الخطط ويدبر له طرق الاحتيال ، وهذا ما عارضه الامام

فى قوة صريحة ! لقد كان للخديو أرض زراعية فى أحدى جهات الشرقية وللأزهر بالجيزة أرض بنائية تباع الاولى بالفدان ، وتباع الثانية بالمتر وان تساوتا معا فى المساحة العددية ، فشاء أن يستبدل أرض الازهر بأرضه وهى لا تبلغ فى قميتها الشرائية ما يساوى واحدا من الثلاثين اذا قيست بأرض الازهر فأوعز الى بعض مساعديه من أعضاء مجلس الاوقاف أن يتقدم باقتراح المبادلة بحجة أن المساحة متكافئة ، وظن ان منزلته العليا ستمنع كل اعتراض ، ولكن الاستاذ الامام مع نفر من المخلصين قد رفض المبادلة واعلن أنها اعتداء على أوقاف الازهر ، وان على الخديو ان يدفع للأزهر الفرق المالى الكبير بين الصفقتين وقدره عشرون ألفا من الجنيهات اذا أراد الاستبدال ، وعشرون ألفا فى ذلك الزمن مبلغ خطير ندرك قوته الشرائية اذا علمنا أن ثمن الفدان الواحد حينئذ كان لا يتجاوز ثلاثين جنيها ! وضاق الخديو بصراحة الامام ، وهدد من تابعوه !

ثم شاء أن يتدخل فى شئون الازهر ليحرم نابها من العلماء أن ينال رتبته ، حين يوعز بمنح الرتبة الى أحد خاصته من العلماء ممن لا يصلون الى مستواها ! مريدا بذلك أن يصل صاحبه بهذا المنح الى عضوية المجلس الاعلى لشئون الازهر فينضم الى مساليه ، ويصبح الخديو ذات أصوات راجحة يدير بها المجلس كيف يشاء مهما عارضه عالم صريح الراى كالاستاذ الامام ، وهى مسألة مشتهرة كتب عنها مؤرخوا محمد عبده باسهاب ،

ولكن الدكتور أحمد أمين لخصها بايجاز سريع فقال (١) :

« وحدث ان خلا مكان لكسوة التشريفة فى الازهر ، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتى المعية (الخديوية) ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعة فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ ذلك الامر ، واعطاء الكسوة للمستحق،وزاد الطين بله ، ان العلماء لما اجتمعوا عند الخديو فى التشريفات كلم لخديو شيخ الجامع فى غضب وتوبيخ ، فرد عليه الشيخ محمد عبده فى حدة : « اذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريفات بمقتضى ارادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا ينسخ هذا القانون » فلما سمع الخديو هذا الرد احمر وجهه ووقف ، ايذانا للحاضرين بالانصراف . وآلى على نفسه أن يحرج المفتى ويكيد له حتى يخرجه من منصبه ، وينتقم من فعلته » .

ومن يومها والدسائس المنكرة اللئيمة تتابع الامام ، وقد انحطت هذه الدسائس الى درك من القذارة والدناءة لا يطرق على بال ، ولعل أكثرها مدعاة للدهشة أن تلفق صورة للامام مع بعض حسناوات أوربا فى موضع شائن ، وأن تنشر فى الصحف مع حملات التشهير ، لتلقى فى روع العامة ان الامام لا يلتزم بآداب الاسلام ، وقد سارع الشيخ الى القضاء فعين الخبير الفتى الذى أصدر رأيه بتلفيق الصورة ! كما صادف أن أفتى الامام بجواز لبس القبعة لمن يعيش فى بلاد الغرب فأعد الخديوى كتيبة من

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ٣٢٠ .

منافقيه ليرجفوا بالامام ويعلنوا جهله وكفره ! مع ان الخديو يلبس القبعة فى فرنسا وانجلترا ! ولكنه ينسى ذلك تشفيا وانتقاما من امام مخلص يدعو الى الاصلاح ! ولا يفيض فى تسلسل مواقف الامام من طغيان عباس لان ما أشرنا اليه مقنع كاف .

نتنقل الى دور الطلبة أنفسهم فى مقاومة الاحتلال ، والحق أن جميع طلاب المدارس العالية كالحقوق والهندسة والطب ودار العلوم وكذلك طلاب المدارس الثانوية والفنية ، قد أعلنوا غضبهم على الاحتلال ووجدوا فى جريدة اللواء التى يصدرها الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل متنفسا لاقلامهم ومشجعا لحركاتهم الوطنية ، وقد قام المرحوم الاستاذ عبد الرحمن الرافعى بتدوين كثير من مواقف هؤلاء الناهضين ، اذ كان طالبا بالحقوق ، ومعاصرا لما دون فهو ينقل عن عيان ماثل لا عن سماع يروى أو تاريخ يقرأ ، على أن جنازة مصطفى كامل قد أظهرت روح الطلاب اظهارا أفزع المحتلين ، اذ رأوا عن يقين ان سياستهم فى أخذ الشبيبة بالشدة ومحاولة اقصائهم عن العمل الوطنى قد عادت بالاخفاق الذريع ، حتى ريئا السير غورست يهرع الى الخديو عباس مستنكرا هائجا ، وقد قال له فى حدة « اذا كانت افكار الطلبة بهذا الشكل فماذا يكون منهم عند تقلدهم الوظائف العامة » (١) .

ومع وجود اشارات كثيرة للنشاط الازهرى فى الكتب التى أرخت هذه الفترة ، فان مما يؤسف الباحث

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ١٤٢ لاحمد شفيق باشا .

المحايد ألا يجد محـــاولة جادة لتتبع هذا النشاط !
ولا نتهم من تصدوا لتاريخ هذه الحقبة بتعمد الاهمال ،
ولكننها نقول انهم فى كلياتهم المدنية لم يستطيعوا الالمام
بهذا النشاط كما لمسوه عيانا فى كلياتهم ، ونحن بمراجعة
صحف هذا العهد نجد أن جريدة اللواء قد نشرت بتاريخ
٢٥ يناير سنة ١٩٠٩ مقالا كبيرا يتحدث عن اضراب
الطلاب بالازهر اذ رفضوا العودة حتى تجاب مطالبهم
الاصلاحية ، وعقدوا عدة اجتماعات كثرت فيها الخطب
الحماسية التى لم تقف عند حدود الاصلاح التعليمى بل
تجاوزته الى المناداة بالحـــرية والاستقلال وقد هاج
الخديو عباس متأثرا بما رأى اذ كان يظن ان حركة محمد
عبده الاصلاحية قد ماتت بموته وأن الذين يسيطرون
على الطلاب من مناوئى الاستاذ الامام قد عفوا على كل
أثر تركه ! وها هو ذا يجد تعاليم محمـــد عبده تذيع
وتمتد ، وتصبح موضع الاتفــــاق التام من الشبيبة
الازهرية ، فاضطر الخديو الى تأليف لجنة برعاية وكيل
الجامع الازهر الشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى للبحث
فى أسباب الاضراب . وحاول أعضاء اللجنة أن يطمئنوا
الطلاب بالوعود المعسولة ، ولكنهم لم يجدوا لديهم غير
الـكلام فقط . فألفوا اللجان الداعية لمواصلة الجهاد ،
واتصلوا بالحزب الوطنى فوجدوا من أعضـــائه ومن
جريدته « اللواء » كل تأييد ، اذ دأبت الجريدة الوطنيـة
على نشر أخبار الطلاب فلفتت أذهان زملائهم الطلاب فى
المدارس العالية الى ضرورة تأييدهم وتجمع فى نادى
المدارس العليا حشد غفير من الطـلاب يعلنون تأييدهم

لحركة الاصلاح الازهرى ، ويدعون الى مظـــاهرة عامة تسجل هذا التأييد في صورة حماسية لا تقبل الشك ، وقد قامت بالفعل هذه المظاهرة الرائعة فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٩ حيث تقدم طلبة الازهر الجموع المحتشدة فى صفوف متوالية الى ساحة عابدين هاتفين . ودعوا الى اجتماع عام فى الغد بحديقة الجزيرة يضم جماهير كثيرة من طلاب المدارس العالية ، ولم يتخلف أحد فى الموعد المحـــدد بل زاد عدد المتظاهرين فى غدهم زيادة ملموسة . وقد توجهوا بعد أن القوا خطبهم الثائرة فى حديقة الجـــــزيرة الى دار اللواء هاتفين بحياة الحزب الوطنى ، واصطدم البوليس بهم اصطداما تبودلت فيه ضربات العصى ، وقذائف الحجارة ، وأذكر أن مجلة كلية الآداب (١) بالمنصورة نشرت فصلا قويا مؤيدا بالمراجع الدقيقة يشير الى ما كان من أمر هذه المظاهرة الازهرية الخطيرة ، وقد مهدت له بتوطئة جيدة عن مكايد الاحتلال البريطانى ، وخطط غورست ودنلوب فى اجهاض التعليم بمصر ، ثم أوجزت ما قام به الطلاب فى مختلف المدارس من مظاهرات حماسية واجتماعات سياسية متعـــاقبة ، ورأت أن تفيض فى حديث المظاهرات الازهرية فتحدثت عن دوافعهـــا وخطواتها المتتالية يوما بعد يوم ، الى أن قالت مستندة الى مصادرها الصادقة ومن بينها مذكرات الزعيم سعد زغلول (٢) .

---

(١) بالعدد الاول من مجلة كلية الاداب بالمنصورة مابين (ص ١٢٥ ، ١٥٢) بحث تاريخي واف أعده الدكتور الفاضل على بركات تحت عنوان (دور الطلبة المصريين فى الحركة الوطنية قبيل الحرب الاولى) .

(٢) مجلة كلية الاداب ص ١٣٥ .

« واذا كانت تحركات طلبة الازهر قد بدأت حول بعض المطالب الخاصة بالازهريين فانها سرعان ما تحولت الى حركة ذات طابع سياسى اذ اتجهت هذه الاضرابات الى هجوم على الخديو وطالب « الازهريون » بأن يكون للأزهر السيطرة على أوقافه التى كان يتلاعب الخديوى بمقدراتها فى اطار تبعيتها للأوقاف .

وازاء تفاقم الاحوال تم اجتماع خاص فى قصر عابدين ضم الخديو وشيخ الازهر الشيخ حسونة النووى ورئيس النظار ، وناظرى المعارف والحقانية ، وفى هذا الاجتماع تقرر رفض كل طالب أو عالم يمتنع عن تحصيل الدروس، مع ايقاف كل من يريد منع غيره من مواصلة الدراسة وأمام هذا الموقف ، وأمام تشديد الحراسة ، قرر الكثير من الطلبة اخلاء الازهر والعودة الى منازلهم وقراهم .

وفى أول فبراير اجتمع مجلس الأزهر الأعلى برياسة الخديو وأصدر قرارا بحرمان الطلبة من دخول الازهر فيما عدا طلبة السنتين الاولى والثانية ، والطلبة الاجانب الذين لم يثبت اشتراكهم فى هذا الاضراب ، وايدت جريدة اللواء موقف الطلبة الذين نفذ صبرهم لسوء الادارة ، والاستبداد الذى يمارس تجاه الازهر ، واتخذ الحزب الوطنى من اغلاق الازهر مبررا للهجوم على بطرس غالى شخصيا ، وقد فوت الطلبة على الحكومة ضرب حركتهم حين تضامن الذين سمح لهم بالدراسة فى الاضراب مع اخوانهم الممنوعين من العودة للدراسة ، وانبثقت منهم لجنة الاتحاد الازهرى الفرعية ، وهى التى اخذت على عاتقها مسئولية قيادة التحركات الطلابية » .

وطبيعى أن يتأزم الموقف وأن يميل الخديو للتشدد ، فيستقبل شيخ الازهر حسونة النواوى وتنكل الحكومة بالطلاب على يد بعض صـــنائعها الاذيال فتعتقل مائة وعشرين طالبا ، وترغم مئات على الرحيل الجبرى الى مواطنهم الاصلية فى القرى ، وتمنع العلماء من الصـلاة بالازهر !!

ولكن سعد زغلول رحمه الله يعارض ذلك كله ويجمع معه عددا من الوزراء مطالبين بالعفو ألتام عن الطلاب ، والاسراع فى اصدار قانون الاصلاح ، ويستجيب الخديو مضطرا ويهـدأ الطلاب ويبدءون دروسهم ثانية ولـكن قانونا آخر يعاجلهم دون مبرر ، يمنع اشتراك الطلاب فى المسائل الوطنية ، ويحرم عليهم الكتابة فى الصحف! وطبيعى أن يثور عليه الطلاب وأن يؤيدهم زملاؤهم طلاب المدارس العليـا ! فتلجأ الحكومة الى اصدار قـانون المطبوعات ، وهو الطامة التى أشعلت النار فى البترول ، فهاجت الصحف وتجددت المظاهرات وكثر التصـــادم الدموى بين الطلبة والبوليس ، ليصدق قـول شوقى فيما بعد :

وللحـرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

هذه اشارات موجزة تدل على غيرها ، ولعلها تجد من يتهيأ لتأريخها تاريخـا منهجيا الآن هذه الحقبة المظلومة تحتاج الى انصاف عادل يقوم به محقق أمين .

الأزهـــــر
يقود ثورة سنة ١٩١٩

تحدثت الصحف اليومية جميعها باسهاب عن ثورة سنة ١٩١٩ ، فوالت الصفحات وراء الصفحات فى سرد أحداثها ووقائعها بمناسبة مرور نصف قرن عليها ، وكان عجيبا أن يغفل دور الازهر فى هذه الثورة اغفالا لا ندرى الباعث عليه ، الا ما ندر من أسطر ضئيلة لا تصور الحقيقة الكبيرة ، مع ان الثورة بدون جهاد الازهر تفقد الرائع الجليل ، ولا أقـــول ذلك تزيدا وادعاء ، بل أرجع الى ما ذكره الاستاذ محمود العقاد فى كتابه الشهير عن زعيم الثورة ، حيث أعلن أن سعد زغلول نفسه فوجىء بالمظاهرة الكبرى التى انبعثت من الازهر فأحدثت الشرارة الاولى فى الشعب ثم اندلع لهيبها فى سائر المدن والقرى وقد نص العقاد صراحة ص ٢٢٦ وما بعدها على أن الثورة فى بدايتها لم يكن لها تنظيم من الوفـد ولم يكن على رأسها مدبر مسئول عن رجال السياسة الرسمية ! حتى لقد تعجب سعد رحمه الله فى معتقله حين واتته الانباء بمظاهرات الازهر !! ولكن ما أغفلته الصحافة هذه الايام قد عرفه الناس جميعا وأشاد به شوقى حين قال فى قصيدته الشهيرة :

المعهد القـــــدسى كان ندبة
قطبا لدائرة البــلاد ومحورا
ولدت قضيتها على محــرابه
وحبت به طفلا وشبت معصرا
وتقدمت تزجى الصفوف كأنها
جاندارك فى يدها اللواء مظفرا

ولم يكن احتضـــان الازهر لثورة سنة ١٩١٩ حدثا غريبا على تاريخه أو شيئا بعيدا عن رسالته فى محاربة الطغيان ، اذ أننا نعرف أن الثورة الاولى للشعب المصرى فى عهد الحملة الفرنسية كان زعماؤها الوطنيون جميعا من علماء الازهر ومن يلوذ بهم من التجار والاعيان ، وكان الشباب الفدائى فيها من طلبة العلم بالازهر الشريف ! وانت حين تقرأ تاريخها المنصف تلمس هــذه الحقيقة الـكبيرة فى كل سطر تقرؤه فاذا انتقلت الى الثورة الثانية تجد زعيمها البطـــل احمد عرابى ربيب الازهر وتلميذ حلقاته ، وتجد أكثر اعوانه المخلصين ، وموجهيه الصادقين من رجال الازهر وقد ظل توفيق مكينا فى كرسيه لدى الشعب حتى لفظــه قرار الشيخ الانبابى بخلعه وفتــوى الشيخ عليش بمروقه ، وحين أحبطت الثورة الباسلة كان صفوة المعاقبين سجنا ونفيا وتشريدا! من علماء الازهر وابطاله وفى مقدمتهم الامام محمد عبده رضى الله عنه أما الثورة الثالثة فلا نقول ــ فقط ــ ان زعيمها الشعبى سعد زغلول هو ابن الازهر وتلميذه بل نعلن أن الازهر كان صاحب الدور الرئيسى فيها بما

قام به من أحداث خطيرة تحيفها الكاتبون اليوم دون مبرر معقول ، فرأيت أن اشير اليها فى هذا المقال .

لقـد تحدثت الصحافة عن انتهاء الحرب العـالمية الاولى وسجلت الوثائق المتبادلة بين وزارة الخـارجية فى لندن ودار الحماية فى مصر بشأن ما تقدم به الزعماء من المطالبة بتقرير المصير ثم ما تهددهم به اللورد اللنبى من قمع وانتقام ، ولن نفيض فى شيء من ذلك بل نخلص منه الى أن احباط الدسائس البريطانية لم يكن ليتم بدون نشاط الازهر ووعيه الوطنى ، فقد أراد اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية أن يسعى بالفساد بين عنصرى الامة فزعم أن الاقباط يؤيدون الاحتـلال ويعارضون الثائرين وأن الثورة حركة هوجاء يقوم بها الرعاع والغوغاء من المتطرفين ، فسعى أسـاتذة الازهر وعلى راسهم مصطفى القاياتى ومحمود أبو العيون وعبد ربه مفتـاح ومحمد عبـد اللطيف دراز وعلى سرور الزنكلونى الى كنائس الاقباط يجمعون الكلمة ويوحدون الصف ، ودخل القمص سرجيوس الازهر بأمر الشيخ القاياتى ثم اعتلى منبره ليتحدث مع المتحدثين ، كما رأى علماء الاسلام من واجبهم أن ينهضوا لتشييع جنـازة من يستشهد من المسيحيين كما يشيعون جنائز الشهداء من المسلمين دون تفريق ! وقد ارسل الشيخ ابراهيم سليمان قصـائده الوطنية داعيا الى الاتحاد الاخوى فى أراجيز سهلة قامت مقام الاناشيد الحماسية وقد ذاع منها هذا البيت على كل لسان :

الشيخ والقسيس قسيسان
وان تشأ فقل هما شيخان !

وبهذه الخطوة الحاسمة من رجال الازهر سقطت حجة وزير الخارجية البريطاني ، واضطر الى أن يلفق كلاما آخر يبرر فيه وجود الاحتلال البريطاني ، بعد أن أصبح حديث التعصب الديني لدى المسلمين مهزلة مفضوحة ينكرها الواقع الصريح !

هذا موقف رائع للأزهر يذكرنا بموقف آخر لا يقل عنه روعه في العمل على وحدة الصف ، ذلك حين أرجف المعتمد البريطاني بأن الموظفين لا يوافقون جميعا على الثورة المصرية مستندا الى أن أقلية قليلة من الموظفين لم تضرب مع المضربين اذ واصلت العمل في أحلك أيام الثورة عن رهبة لا عن رغبة فاستنكر رجال الازهر أمر هذه القلة ، وقامت مظاهرة كبرى يحمل علمها الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله ليتقدم آلاف المتظاهرين من شباب الازهر وطلاب المدارس ورجال الامة متجهين الى أماكن العمل في كل ادارة كي يجمعوا الموظفين على كلمة سواء ، وقد تعرضت المظاهرة لرصاص الاحتلال دون أن يستشعر رجالهـــا الخوف وسقط عشرات المصابين ، وهوجم حامل العلم ورفقاؤه فلم تزل لهم قدم وواصلوا الثورة هاتفين وما انتهى اليوم حتى تحقق المرجـــو من المظاهرة فاتفق الموظفون جميعا على الاضراب ، بل لقـــد هال المحجمين أن يشذوا عن اخوانهم فكفروا عن انفسهم بالالتجاء الى الازهر والانخراط في سلك الفـــدائيين ! واصبح الصباح فاذا الاضرب سائد عام .

هذان موقفان رائعان للأزهر في احبـــاط الـــكيد الانجليزي فاذا انتقلنا بعدهما الى الالمام ببعض الروائع الدائمة للأزهر في الهاب الثـــورة ، واذكاء الوطنيـــة فاننا نجـــد ما لا نستطيع الاحاطة به في مقـــال موجز

يعتمد على التركيز ! وحسبنا أن نختار للقـــارىء من الاحداث ما يشير الى النظائر والاشباه .

لقد اعتقل ســعد ورفاقه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ ، فلم يكد الازهريون يتناقلون النبأ حتى سرت فى نفوسهم روح الغضب الناقم ، وتتابع خطباؤهم على منبره العالى يلهبون الحماسة ويدعون الى العمل الفورى من أجـل البلاد ، ثم خرجوا يومى ٩ ، ١٠ مارس فى مظاهرتين رنانتين كانتا الاوليين فى تاريخ الثورة فأخذوا يطوفون الاحياء هاتفين بسقوط الحماية ، ومن فوقهم رصاص الانجليز يتقـــاطر دون أنه يستطيع ارهابا وتخويفا للثائرين ، وقد ذكر الاستاذ أمين الخولى وكان من الطلاب حينئذ ـ كما جاء فى كتاب مواقف حاسمة ص ٤٨٩ ـ أن [illegible] الازهر قد صاغوا للثورة شـعارا عفويا هتفوا به جميعا حين نادوا فى مظـــــاهرتهم الاولى بقولهم « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فحددوا مطالبهم فى عبارة موجزة تتسم بالوضوح الصريح ، وقد ريع المعتمد البريطانى لما حادث تأبرق لخارجية لندن بأنباء المظاهرة ، وبان له بوضوح أن ما زعمه للخارجية من قبل بأن حركة سعد طائشة لا تبلغ مبلغ حركة مصطفى كامل قد ثبت بطلانه الصريح بمظاهرتى الازهر ! هاتان المظاهرتان اللتان كانتا بعيدتين كل البعد عن أدنى تأثير للوفـد السياسى كما ذكر مؤرخ سعد ! بل ان أحد زعماء الوفد حينئذ قبل الانشقاق وهو عبد العزيز فهمى ثار على المتظاهرين فى غضب ، واعلن أن المسألة ليست لعب أطفال وصاح بالجموع دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا النار اشتعالا ، وقد ذكر العقاد فى وضوح صريح ! واذا كان سعد قد

عجب لحدوث المظاهرتين اللتين لم يكن يتوقعهما واذا كان عبد العزيز قد استنكر المظاهرات أشد الاستنكار فالازهر وحدة المسئول عنها ، فهو صاحب الفضل الاول فى ايقاظ المصريين للمطالبة بحقوقهم ، وفى الجراءة الساحقة التى ضرب بها المثل الناس حين واجه رصاص الانجليز فى غير مبالاة ! وقد سجل الاستاذ الرافعى أن أول شهيد للثورة كان نجل أحد علمـــــاء الازهر ممن يشتغلون بالمحاماة الشرعية ثم تتابع بعده الشـــــهداء من شتى الطوائف والطبقات ! وقد حدثت فى المظاهرة الثانية خارقة عجيبة لأحد شباب الأزهر ، غفل عنهـــا الذين يمثلون الصحف اليوم بيوميات السياسيين ومذكرات الخارجية البريطانية ومقابلات اللنبى وملنر وتأليف وزارات رشدى ووهبة وسعيد وزيور مما لاكته الاسماع واشـــتهر خبره لدى القريب والبعيد من القراء دون أن يذكروا للوطن بطولاته الرائعـــة فى تسلسل مطـــرد يشفعه التحليل المسهب والتشريح المطيل ! واذا كان التاريخ لعهدنا هذا يسهب فى دور الرسميين ويقتضب ورائع الشعبيين فماذا قدمت الصحافة اذن يا قوم من الجـديد ، وفيم شغل القراء بوثائق ذائعة يعرفها أكثر الدارسين ، هذه الخــــارجة العجيبة لا يزال يذكرها من عاصروا الثــــورة وقد كان الازهريون يتناقلونها فى مجالسهم كاحــدى الاساطير حتى سجل حقيقتها الواضحة عن مشاهدة وعيان الاستاذ محمـــد على غريب بجـــريدة الاخبـــــــار الصـــادرة فى ١٩٦٩/٣/٢١ فقال ما نصه أذكر ان الانجليز نصبوا مدفعا أمام الازهر وصوبوه الى قلوب الآلاف من المتظاهرين وكان يدير المدفع جندى انجليزى سرعان ما تقدم منه

شاب أزهرى بكل جرأة وشـــجاعة ـ بل ان الوصف بالجرأة والشجاعة لا يكفى ـ فان هذا الشاب الازهرى قد اندفع الى الجندى البريطانى وضربه على رأسه فأوقعه أرضا ، ثم استولى على المدفع ولكن ساذا عسى أن يصنع به ، لقد اخذ يديره يمينا وشمالا دون أن يعرف كيف يطلقه الى أن اخترقت رصاصة من أحد الانجليز رأسه فسقط ، « كان هذا فى المظاهرة الثانية كمـا تناقل الرواة ، تلك التى أصدر القائد العـام للقوات البريطانية قراره بمنع المظاهرات عقبها فى ١١ مارس سنة ١٩١٩ مع تهديد كل متظاهر بالمحـــاكمة على وجه السرعـة المستعجلة » ! ولكن المظاهرات تنتشر وتزيد دون اكتراث بمحاكمة أو تهديد ! وقد أنشأت السلطة محاكم عسكرية فى القاهرة والاقاليم وأخذت تصدر الاحكام الجـــائرة بالاعدام والسجن المؤبد ، فكان ذلك الشطط فى التنكيل زيتا يضاف الى الوقود الملتهب فيتزايد الحريق ويمتد الى شتى الآفاق ، واذا كان من الانصاف أن نذكر أن الوطنيين فى كل مكان بعد أو قرب من القـاهرة قد أعلنو الثورة الصاخبة على العدو فان من الانصاف أن كثيرا من طلبة الازهر قد رجعوا الى أقاليمهم فى القرى والعواصم يخطبون ويقودون ويشرحون القضية الوطنية فى غيرة وايمان فقالوا ما لا تستطيع الجرائد أن تقوله فى عهد الحماية وحققوا قول شوقى الذائع فى تأثيرهم القوى ونفوذهم الكبير .

هزوا المدائن كهفها ورقيمهـا

أنتم لعمر الله أعصاب القرى

وقد ثبت أن المظاهرة الصاخبة الكبرى فى طنطا التى أسفرت عن مجزرة وحشية قام بها رصاص العدو قد خرجت بدءا من المعهد الدينى يتزعمها طلاب الجامع الاحمدى ، كما كانت مظاهرات الاسكندرية وليدة معهده الازهرى . واذا كان المرحوم يوسف الجندى قد استقل بزفتى بعض الوقت متحديا سلطة الاحتلال بالقاهرة وذكر له المؤرخون ذلك فى اعجاب واكبار فان من الواجب أن نذكر أن الاستاذ الشيخ عباس الجمل العالم الازهرى المعروف قد صنع هذا الصنيع عينه بالمنيا فأعلن استقلالها عن الحماية ورفع لها علما تحريريا خاصا ، وجمع زعماء الاقليم تحت لوائه مكافحا ! وتسألني بعد ذلك لماذا يحرص الكاتبون على تخليد صنيع الاستاذ يوسف الجندى ثم يتجاهلون صنيع الشيخ عباس الجمل فلا تجد الجواب المقنع الصريح ، واذا كان الحق لا يعدم أنصاره فاننا نذكر أن الاستاذ محمد صبيح قد سجل ذلك الفخر لصاحبه فى كتابه مواقف حاسمة مع مواقف أخرى للوطنيين .

وقد هال انجلترا ما رأته من عنف الاضرابات واشتداد المظاهرات فأصدرت أمرها بالافراج عن سعد ورفاقه فى ١٧ ابريل وظنت أنها بذلك تسكن العاصفة . ولكن الازهر اثبت للناس جميعا أن المسألة ليست مسألة زعماء واشخاص بل ان الموقف يتلخص فى شعاره الذى هتف به وهو الاستقلال التام ، فما كاد سعد يطلق من عقاله حتى نظم الازهريون مظاهرة رنانة تحدث عنها الشيخ محمود أبو العيون فى ذكرياته السياسية عن الثورة بمجلة المصور عام ١٩٥١ فكان مما قال

« وفى ١٩١٩/٤/١٧ أفرج عن سعد وصحبه فقامت مظاهرة كبرى اشتركت فيها طوائف الامة من ازهريين وموظفين وقد بدأت من الازهر ومضت تخترق شوارع القاهرة وفى مقدمتها الازهريون حتى وصلت الى عابدين وكنت أنا ومصطفى القاياتى فى مقدمة المتظاهرين نحمل علما واحدا ، ولما وصلنا ميدان الاوبرا وامتلأ بنا سمعنا طلقات الرصاص تنبعث من شبابيك سورالازبكية، وتوجه نيرانها الينا على غير انتظار ، وسرعان ما رأينا الدماء تجرى ونظرت فلم أجد من اخوانى الا الشيخ عبد ربه مفتاح والشيخ القاياتى والرصاص يمر بيننا حتى أصابت العلم فأحرقته ، وبينما نحن فى هذا الجو سمعنا من ينادينا يا قاياتى يا أبو العيون ارحموا انفسكم ولا تعرضوها للقتل ، ولكننا سرنا وراء المتظاهرين واجتزنا المكان والرصاص يدوى من خلفنا ، وظهورنا معرضة له ، ثم تشتتت المظاهرة وعادت فالتأمت فى شارع عابدين بعد جامع الكخيا » .

ووالى الشيخ ابو العيون حديثه عن ثورة الازهر وعن اعتقاله مع زملائه الازهريين ثلاثة أشهر فى رفح ، ثم عودتهم لاستئناف الجهاد بما لا نستطيع بسطه لكثرته ، واذا كان الشيخ ابو العيون قد ذهب الى ربه دون أن يجد من ينصفه من الباحثين فانى وفيته حقه فى مجال آخر (١) ونحن نعلم محاولة اللورد ملنر وزير المستعمرات الانجليزية حين قدم مشروعا يراه أساسا للمفاوضة . ونقطة لتحديد العلاقات المصرية الانجليزية محاولا

(١) الجزء الاول من النهضة الاسلامية للمؤلف .

أستمالة بعض السياسيين بمـــا يخدع به الأغرار من هؤلاء ! وقد كان يوقع الفرقة بين الوطنيين لولا أن أصدر المفتى الاكبر الشيخ محمد بخيت المطيعى فتواه بمقاطعة لجنة ملنر وقد وصمت بالخيانة كل من تحـدثه نفسه بمفاوضة الاستعمار بعيدا عن زعماء مصر المناضلين . وهي فتوى مجلجلة طرب لهـا سعد زغلول فى أوربا وابرق الى المفتى الاكبر بقوله فى اعجاب ان فتواه جديرة بأن تصدر عن أكبر مفت للاســلام فى عصرنا الحديث ! وهكذا رجع اللورد بالخيبة بعد كلمات معدودة سطرها ازهرى امين .

لقد اعتقد المحتلون ان الجامع الازهر مهد الثورة ، ومجمع التقاءات رجالهـا ، وموضع التدبير والقيـادة وزادهم ضيقا وحنقا ما شاهدوه من قيام طلبة الازهر بتوزيع المنشورات الثائرة على جميع الســفارات والقنصليات الاجنبية اذا كانوا يحرصون أشد الحـرص على كتمان الحقائق الوطنية واخفائها عن الاجانب ثم راوا أن المنشورات الثائرة لا تقف عند الســفارات المحايدة وحدها ، بل تغزوا دار الحماية البريطانية مهددة متوعدة وموقعة بامضاءات رجال الشرطة الوطنية اذا أن الشيخ مصطفى القاياتى رحمه الله بادر بتأليف بوليس مصرى من طلبة الازهر والمدارس العليا ، تكون مهمته المحافظة على النظام اثناء المظاهرات منعا لما قد يحدث من تخريب يتعمده أعوان الاحتــلال تشويها للحركة الفدائية الثائرة ، بحيث كان كل شرطى وطنى يضع على ذراعه قطعة حمراء كتب عليهـا ما يدل على انتمائه

لبوليس الامن الوطنى بالازهر ، وكان من سلطة هـذا النظام أن يتعقب من تسول له نفسه ممـالاءة الاحتلال ليقوم بأسره وتقديمه الى هيئة المحاكمة التى يرأسها الشيخ ابو العيون والتى كان مقرها مسجد المؤيد ، وقد بلغ من نفوذ هذه الهيئة أن من تحكم عليه بالخيانة من متهميها كان يسقط سقوطا يلحق العار بأسرته وعارفيه، وقد ذكر الشيخ أبو العيـون فى مذكراته بالمصور أن احد هؤلاء قد لزم بيته ، وسعى أهلوه الى الشيخ بما يثبت براءته من ادعاء كاذب فاستأنف أبو العيون نظـر القضية وحكم ببراءته فكان المصريون يهنئونه مغبطين ويحضنونه مقبلين ! فياله تاريخا مجيدا فقد المؤرخين .

اجل عرف المحتلون سيطرة الازهر ونفوذه فأغلقوا أبوابه ووضعوا الحـراس الشداد من جنودهم امامه مسلحين ببنـادقهم ومدافعهم كى يمنعوا الجمهور من الاحتشاد حول منبره والاجتماع فى رحابه ! ولكن الشمل كان يلتئم رغم أنوفهم اذا اهتدى الازهريون الى باب خلفى يصلون اليه من زقاق ضيق رهو المعروف بباب الجوهرية تجـاه الزاوية المشهورة بزاوية العميان ! فأخذوا يتسللون منه فرادى وجماعات حتى اذا التأم الشمل خرجوا يتظاهرون فى صخب ثائر بحيث يفاجأ الحراس بحشودهم المتراصـة تندفع الى الميدان وهم حائرون ، ثم لم يعدموا بعد البحث الجاهد على من يدلهم على الباب الخلفى فأوصدوه . ولكن الحيلة لا تعدم وجها للنفاذ مهما كبدت الازهريين شتى الصعاب ، ففكروا فى شارع ضيق يسمى الآن بدرب الحلقة وبينه وبين الازهر

بيوت كثيرة ، وأخــذ يستأذنون أصحابها فى دخول المنازل ثم الصعود على سطوحها والتنقل بسلالم خشبية تصل ما بين الســقوف حتى تنتهى الى سطح الازهر متعرضين الى أخطار هائلة تكلف الثائر حياته لو فقد انتباهه لحظة فزلت به القــدم ! وقد فصــل الاستاذ الطنيخى هذا الموقف الرائع فى مقال صادق نشره بمجلة الازهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٥ هـ والرجوع اليه ممـا يفيد ، ولم يهدأ للثائرين بال ، فظلوا فى حركة نشيطة لا يقر لها قرار ، حتى عصف الخـلاف بوحدة الزعماء فانشق عن الوفد من يعرفون بالاحرار الدستوريين ، وفرح المحتلون والقصر بهذا الانشــقاق ، وظنوا انهم وجدوا من يرتكزون عليه فى تفريق الجهود ، وانفضاض الشمل ، ولما كان سعد هو العقبة الاولى امامهم فقــد بادروا باعتقاله ثانية مع رفاق آخرين وارسلوا كتائبهم فى كل ميدان لقمع من تسول له نفسه أن يتظــاهر ويحتشد ! ولكن الازهر ! حيا الله الازهر ! قد افسد تدبيرهم الظـالم اذا ما كاد نبأ الاعتقــال يدوى فى الجمهــور دوى الرعد ، حتى هرع الالوف الى صحن الجامع ينظرون ما ستقوم به الهيئة التنفيذية للثائرين ! وقد خطب أبو العيون والقــاياتى وابو شادى ودراز ومحجوب ثابت معلنين استئناف المظاهرات ، ثم بادر الشيخ مصطفى القــاياتى بتأليف لجنة جديدة للوفــد تقوم مقام المعتقلين كان هو احد اعضائها البارزين ، ولم يأل المحتلون جهدا فى تعقيب المتظاهرين وتسليط قانون الاحكام العرفية الجائر على رقابهم ! فقدموا الى المحاكمة جماعات ، وقد سيق الى قسم الازبكية عشرات الازهريين

يجدوا أحكاما تعسفية تفرض عليهم غرامات باهظة لا قبل
لهم بدفعها ، فتألفت فى الحال جماعات مخلصة برئاسة
الشيخ القاياتى تجمع التبرعات لانقاذ المواطنين جميعا
من عمال وتجار وأزهريين وقد جلس الشيخ القاياتى
يحصى ما تجمع ثم يوازن بين ما يطلب من غرم وما نقص
من مال ، وكان مشهدا يستدر الاعجاب حين خلع بعض
الطلاب لباسه الخارجى لتباع فى مزاد وطنى يسعف
المسجونين ! فيا لله كيف نغفل هذه الروائع لنسهب
كثيرا فى مفاوضات ملنر وتصريح كيرزون وتملأ الصحف
بصور وزراء ومديرين كان بعضهم أصناما تتحرك فى يد
الاحتلال ! ان قيادة الازهر للثورة المصرية يتطلب مؤرخا
منصفا يختصها بالتحليل ، ولا أدعى لنفسى انى أستطيع
ان اقوم بمهمة هذا المؤرخ النزيه ، ولكنى ألفت النظر
الى تدوين هذا التاريخ الشعبى الحافل متأثرا بمقال
رائع كتبه أستاذى العالم الجليل محمد الغزالى فى العدد
الأخير من لواء الاسلام متعجبا لاغفال دور الازهر وكل
دور اسلامى فى حركات التحرير لدى من ينكرون ضوء
الشمس من رمد ، حتى لقد صدق عليهم قول المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

موقف الأزهر
من كتاب الإسلام وأصول الحكم

ما رأيت موقفا ظلم فيه الازهر عن عمد مقصود كما ظلم في موقفه من كتاب الاسلام واصول الحكم ، لقد هوجم الازهر ظلما في مواقف كثيرة من اعداء يبغضون رسالته ويضيقون بقيادته ، ولكن ما هوجم به الازهر في هذه القضية كان من افتراء والبهتان واختلاق المتاعب بحيث يضيق له صدر الحليم اذ كل ما وجه اليه من الاراجيف وليد حقد موغل على الحق ، وغرض صريح من الباطل وكان من فداحة الامر أن الذين قاموا باختلاق الاراجيف الكاذبة قوم يتشدقون بدعوى الحرية وانطلاق الفكر والخلوص من الجمود ومحاربة الرجعية ، وهي عبارات تجد استهواء من الغافلين الذين لا يدركون كيف يسمى الكذب صدقا والخيانة امانة ، والسفسطة فكرا والتطاول نقدا ، وأسوأ ما في الموقف كله أن يتصدى للهجوم من لا يعرف شيئا عن حقائق الاسلام ، وهو فيما بينه وبين نفسه فحسب كاتب كبير يقود حرية الرأى ولكنه عند الدارسين دخيل لصيق يهرف بما لا يعرف

وقبل كل شيء اعلن ان صاحب القضية الاستاذ علي عبد الرازق رحمه الله باحث جاد اجتهد فأخطأ ، اجتهد

ى أصل من أصول الاسلام التى قام عليها بناؤه فلم
ل حظا من التوفيق ، وكان على الازهر أن يعلن للناس
طأ المجتهد ، فى أصول الاسلام بالدليل الناهض والحجة
واضحة ، وكان على الاستاذ أن يستمع الى الحجة
لناهضة فى تواضع واذعان ، ولكن نفرا ممن يسيئهم أن
ظهر الحق فى قضية اسلامية تمس أصلا من أصوله
د تعاووا من حوله ، وأخذوا يبذلون الجهد الجاهد
ى تأييده وتسفيه معارضيه ، حتى خيل اليه أنه على
ق ، والرجل بشر لا يدعى الكمال ، ولا يدعيه له أحد،
كان فى طور الشباب المندفع ، فوجد من تأييد المغرضين
دفعه الى العناد بل ما دفعه الى الاستعلاء ! والاستعلاء
ميد كريم اذا كان على الباطل ، أما أن يحاول عالم
حث أن يستعلى على الحق ، وأن ينظر شزرا الى من
دونه اليه فذلك غير الطريق المستقيم .

لو أن البحث العلمى سار فى هذه القضية على وجهه
هادىء المطمئن لظهر الحق سريعا لذى عينين ، ولأدرك
خطىء خطأه دون لجاج ، ولكن أعداء الفكرة الاسلامية
يريدون للحق أن يظهر ولابد أن يلتمسوا من البهتان
كاذب ما يحول بين الناس وبينه ، لقد اعترف الاستاذ
ى عبد الرازق انه بدأ يكتب كتابه عن الحكم فى الاسلام
ذ سنة ١٩١٥ م حين عين قاضيا بالمحاكم الشرعية فى
صر ، اعترف بذلك فى مقدمة الكتاب ص (ف) من
طبعة الثالثة سنة ١٩٢٥ ، كما اعترف (٢٥) من هذه
طبعة بأنه يكتب هذا الكلام ، والخلافة الاسلامية قائمة
ى تركيا لم يفكر فى الغائها أحد والخليفة القائم حينئذ

هو السلطان محمد الخامس ! هذا ما اعترف به الرجل
صراحة فى كتابه اعترافا صريحا لا يقبل الريب ، ومعنى
أنه اجتهد فى مسألة الخلافة قبل أن تسقط على يد
مصطفى كمال بسنوات كبيرة ، وأن الغاء الخلافة لم يكن
دافعه الى بحث قضية الاسلام وأصول الحكم ! ولكن الذين
يؤيدونه بالباطل لا يريدون أن يسمعوا هذا الاعتراف
الصريح اذ يرون أن يعلنوا للعامة أن الكتاب قد ألف
بعد سقوط الخلافة وأن الملك فؤاد قد طمع فى أن يكون
خليفة ، وأن الازهر يحـــاول أن يؤيد الملك لا أن يؤ
الاســـــلام ، وأن الباحث الجرىء على عبد الرازق
تصدى للملك بكتابه ، والملك لا يؤيده غير الرجعيين
علماء الازهر !! فيالله كيف تخلق الاراجيف خلقا ، وكيف
يذكر صاحب الكتاب صراحة ما ينكر هــذه الاراجيف
ويقتلعها من الاساس ، ثم يصر عليها من يؤيدونه بالباطل
ليوحوا الى العامة أن علماء الازهر مأجورون ، وأن الملك
يحركهم حيث يريد ، ولنفرض أن الملك كان ذا هوى
الخلافة فهل يمنع ذلك علماء الازهر أن ينطقوا بالحق
قضية تمس أصلا من أصول الاسلام حين يرون أحد
علماء الازهر يخطىء فى اجتهاده ، ويعلن على النـــاس
ما يخالف هذه الاصول وهو فى رأى الناس جميعا عالم
من علماء الازهر وقاض من قضاة الشرع الاسلامى ،
من منصبه ودرجته العلمية ما يفتن للناس بقوله ! لقد
نشر الاستاذ على عبـــد الرازق كتابه بصفته الدينية
فوجب أن يقول علماء الازهر رأيهم فيما ينسبه أحد
ابنائهم الى دينهم الحنيف ، ولو سكتوا عن ذلك لكان

آثمين ، ثم ان الكتاب قد وجد من الـدوى والضجيج ما جذب الانظار اليه ، اذ تكاتف أعداء الفـكرة الاسلامية على تأييده ، أفيسكت علمـــاء الازهر حينئذ خوفا من ارهاب المتشدقين بعبارات الحرية والـكرامة وائتمار الرجعية ! ثم أتكون الحرية فى أن يجهز المخطىء بخطئه فيؤيده المبطلون ثم لا تكون الحرية فى أن يقوم الازهر بتصحيح الخطأ بما يملك من الصواب ؟ فاذا فعل ذلك فهو عدو الحرية ووكر الرجعية وصنيعة الحاكم فى منطق هؤلاء .

ان أعجب العجب أن يظهر خداع هذه الاكاذيب بمـا لا يقبل اللجاج ثم يصر عليها بعض من يؤرخون لهـذه القضية حتى بعد أن انقطع دويها وسكت نجاحها ، وذهب الملك فؤاد ومن بعده ! فيكتب الاستاذ أحمد بهاء الدين فصلا فى كتــابه « أيام لهــا تاريخ من ص ١٥٣ الى ص ١٧٣ » ، يدور حـول هذه الاراجيف وكأنهـا حق لا شبهة فيه ويقول بصريح العبارة « أدرك القصة ــ قصة الخـــلافة ــ الاذناب وتجار الدين فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة التى علقـــوا بقيـامها شرف الاسلام ، والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون ، لا أحـد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد ، ولا أحد يجسر على أن يحصب كهنة الدين بحصاة !!

ثم يقول بعد صفحات من الكتاب « لم يكد يخرج الى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع من جميع الاتجاهات ، الملك واذنابه لان الكتاب فيه حمـلة هائلة على الملوك ، وتحطيم شامل لحلم الخلافة البراق ! ورجال الدين

ثاروا لانهم رأوا فى هـذا المنطق ما يزعزع سلطانهم ، ويعقل منافعهم فى الاتجار بالدين ، ويكشف عن حقائق هذه العمائم الضخمة التى لا ترتفع الا لنستتر وراءها الظلم والاستبداد » .

هذا بعض ما قاله الكاتب بعد انتهاء العاصفة بثلاثين عاما !! وانى لأسأله أين سلطان رجال الدين الاسلامى الذين يخافون عليه ؟ أكان فى الاسلام كما فى الكنيسة سلطان لرجال الدين ؟ ومتى كان ذلك لهم فى مصر حين صدر الكتاب ! أليس شيخ الازهر وهو رئيس هؤلاء موظفا يولى ويعزل كسائر الموظفين فأين سلطانه اذن ؟ ومتى اتجر الازهريون بدينهم ؟ وفى أى قضية عاصرها الكاتب .

لا احب أن استطرد ، ولكن الحقيقة أن مناقشة علماء الازهر للكتاب لم تكن بوحى الملك فؤاد ، لان المؤلف نفسه اعترف بأنه كتب الكتاب قبل أن يفكر أحد فى سقوط الخلافة من ناحية ولأن الكتاب ملىء بالخطأ الفقهى فى أمس القضايا بالاسلام فوجب أن يصححه المختصون ! أما الذى يؤاخذ عليه الكاتب وأمثاله فهو انهم يتورطون فى الحديث عن قضية لا يفهمون اصولها ، واحترام هؤلاء لنفوسهم يوجب عليهم أن يتكلموا فيما يعلمون ، وان يبتعدوا عن الحديث فيما يجهلون !

يقول الباحث الاستاذ الدكتور ضياء الدين الريس رحمه الله « حين استمع الى حديث اذاعى يدور هذ المدار من نفر لا يعلمون عن الحق شيئا !!

« والذى بدأ من المناقشة أن احد المتحدثين ردد نفس الخطأ الذى وقع فيه واذاعه اكثر الذين تعرضوا للكتاب

وصار شائعا كأنه الحقيقة ، وهو ان المؤلف الشيخ وضع هذا الكتاب وقصد به أن يكون هجوما على الملك فؤاد ، واحباطا متعمدا لمسعاه فى الخلافة مع أن هذا غير صحيح ، وهو خطأ محض ، لأن الكتاب بدىء فى تأليفه سنة ١٩١٥ أى قبل مجيء الملك فؤاد الى الحكم كما ينص على ذلك المؤلف فى المقدمة ، وقد أخطأ الذين أشادوا بمواقف الشيخ فى ذمه للملوك ، وحملته عليهم ، إذا ظنوا انه يقصد الملك فؤاد وأمثاله من الملوك ، مع ان الحقيقة لو راجعوا نص الكتاب وفهموه ان الشيخ انما كان يهاجم خلفاء المسلمين الذى اعتبرهم ملوكا وسماهم كذلك حتى أن هجومه شمل الخليفة الاول للاسلام وهو أبو بكر الصديق ووصفه بأنه أول ملك فى الاسلام وبديهى أن الشيخ ـ أو من وضع الكتاب لم يعرف الفرق بين الخلافة والملك » (١) .

والدكتور الريس باحث متخصص ، وكتابه « النظريات السياسية الاسلامية » قد ناقش كتاب الاستاذ على عبد الرازق مناقشة ، كانت موضع اعتداد المفكرين ؛ إذ كشفت عوار هؤلاء الذين يصفقون لما يجهلون ، مع انتفاخ متفطرس يصلون به الى درجة التورم المتفجر .

لقد كان الازهر موضوعيا حين ناقش أفكار الكاتب مناقشة علمية تعتصم بالدليل ، وأصدر تقريرا مفصلا نقاط الخلاف ، وقد نشر التقرير فى الصحف اليومية ردا على ما روجه المزيفون عن أوهام الكتاب ، ثم دفعت الغيرة بعض الفضلاء فنشر التقرير فى كتاب مستقل طبعه بالمطبعة الوطنية بالمنصورة سنة ١٣٤٤ هـ على حسابه الخاص ووزعه مجانا على القراء ، واليه ارجع

(١) مجلة الثقافة العدد (١٩) ابريل سنة ١٩٧٥ م .

فيما أسجل من نقاط أحاول ايجازها ما استطعت لان الاصل يشمل ثلاثا وأربعين من الصفحات .

ا ــ قال المؤلف : « ان الشرعية الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ ، وأن الدنيا من أولها الى آخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات اهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، واهون على الله من أن يبعث لهــا رسولا وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بهــا وينصبوا لتدبيرها » .

وجاء في التقرير مخلصا : أن المؤلف يشطر الدين الاسلامي شطرين ، فيلغى منه شطر الاحكام المتعلقة بامور الدنيا ويضرب بآيات الكتاب وسنة رســول الله عرض الحائط ، فهو يصادم آيات مثل قول الله « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وقوله « وانزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » ، وقوله « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » ، وقوله « ان الله يأمركم أن تؤدو الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وقوله « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ، واستطرد التقرير الى ذكر آيات كثيرة مشتهرة شملت صحائف ١٢ ، ١٣ ١٤ ، مما هو ذائع لدى المسلمين ، كما ذكر من أحاديث الرسول ما ينص على تطبيق الآيات دون لبس .

ب ــ قال المؤلف : « وظاهر أول وهلة ان الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة الى الدين ولا لحمل الناس على

الايمان ، واذا كان الرسول قد لجأ الى القـوة والرهبة فذلك لا يـكون فى سبيل الدعوة الى الـدين ، وابلاغ رسالته الى العالمين ، وما يكون لنا ان نفهم الا انه كان فى سبيل الملك ! » .

وجاء فى التقرير ملخصا : علم من كلامه هذا أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا الدين ، وجوز أن تـكون الزكاة والجزئية والغنائم فى سبيل الملك ايضا وجعل ذلك خارجا عن حدود رسالته اذ لم ينزل به وحى ولم يأمر به الله تعالى ، والشيخ بذلك يصـادم صريح الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وينكر ما هو معـلوم من الدين بالضرورة فقد قال الله تعالى : فقاتل فى سبيل الله ، وقال تعالى : فليقـاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وقال تعالى : وقـاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وقال تعالى : واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى : خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وقال تعالى فى بيان مصارف الزكاة : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، وقال تعالى : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحـرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقال : واعلموا انمـا غنمتم من شيء بأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتـامى والمسـاكين وابن السبيل .

جـ ـ قال المؤلف : « انك اذا تأملت وجدت ان كل ما شرعه الاسلام وأخذ به النبى المسلمين لم يكن فى شىء كثير او قليل من اساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد اذا جمعته لم يبلغ ان يكون جزءا يسيرا مما يلزم لدولة مدنية من اصول سياسية وقوانين » .

وجاء فى التقرير : ما زعمه الشيخ مصادم لصريح القرآن فقد قال الله تعالى : انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وقال تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وقال تعالى : فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا ، وقال تعالى ، اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .

د ـ قال المؤلف : « ان دعوى اجماع الصحابة على وجوب اقامة امام عادل ، لا تجد مساغا لقبولها على حال ، وليس لها من دليل صحيح ، وان حظ العلوم السياسية فى العصر الاسلامى كان سيئا حيث لم تجد من يبحثها على وجهها ، وان مقام الخلافة منذ زمن الخليفة الاول كانت عرضة للخارجين عليه » .

هذا موجز ما قاله الرجل ، والرد عليه يتطلب اشباعا، لان النص القرآنى والحديث النبوى وحدهما يتطلبان ما بعدهما من مناقشة أحداث الخلافة الراشدة فى العهد الاول ، وقد رد تقرير هيئة كبار العلماء دعوى انكار الاجماع ردا صريحا اعتمد على التواتر الشائع الذى

لا ينكره أحد ثم على نصوص جلية من كتب الاصـــول والتشريع تستند الى احداث البيعة الاولى لابى بـكر ، كما ذكر التقرير ما روى عن مسلم من حديث حذيفة وقد جاء فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « تلزم جماعة المسلمين وامامهم » فقال حذيفة : وان لم يكن لهم امام فقال الرسول ، فاعتزل كل الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت : كمـا ذكر ما رواه مسلم من قوله عليه السلام : من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ، وما رواه مسلم من قول النبى صلى الله عليه وسلم ! انمـــا الامام جنة ، يقاتل من ورائه ويتقى به ، فان أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر ، وان أمر بغيره كان عليه منه .

هـ ـ قال المؤلف : « والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ، ولا غيرها من وظائف الحكم ، ومراكز الدولة ، وانما تلك كلها خطط سامية صرفة لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الامم وقواعده السياسية » .

وجاء فى التقرير : أن انكار القضاء قياسا على انكار الخلافة باطل لان المعـــروف فى كل الـكتب الفقهية أن القضاء من فروض الكفايات ، وقول المؤلف انه ليس خطة دينية باطل ومصادم لآيات الكتاب العزيز . مثل قوله تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شـجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا ممـــا قضيت

ويسلموا تسليما ، ومثل قوله : انا انزلنا اليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائبين خصيما واستغفر الله ، ان الله كان غفورا رحيما ، ومثل قوله : فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .

و ــ قال المؤلف : « لم توجد بعد الرسول زعامة دينية . والذى يمكن تصور وجوده هو نوع من الزعامة جديد ، ليس متصلا بالرسالة ولا قائما على الدين فهو اذن نوع لا دينى » .

وجاء فى التقرير : ان هذه جراة لا دينية لان زعامة ابى بكر كانت من صميم الدين اذ لابد للاسلام ممن يقوم به ، وقد بايع الصحابة أبا بكر رضى الله عنه على انه القائم بأمر الدين فى هذه الامة ، وقد قام به خير قيام ، ومثله فى ذلك بقية الخلفاء الراشدين والذى يطعن فى مقام النبوة يهون عليه أن يطعن فى مقام أبى بكر واخوانه .

هذه أهم النقاط التى ناقشها تقرير هيئة كبار العلماء وواضح ان المناقشة كانت تعتمد على الدليل المباشر من الكتاب والسنة ، لان مجال التحليل العقلى ، والاستطراد الفكرى والاشباع التاريخى مما لا يتسع له تقرير يكتب للعامة والخاصة معا ، لان صحف ذلك العهد قد شغلت الجمهور بكتاب الاستاذ على عبد الرازق شغلا لا فكاك منه حتى صار بعض أحاديث العـــــامة فى الطرقات والمقاهى ، ولابد ان يقرأ كل من يعرف القراءة ليهتدى الى راى ، وقد اظهر كبار العلماء كتبا مستفيضة لمناقشة الكتاب مناقشة تفصيلية تشبع رغبة القارىء المتخصص

نذكر منها كتاب الشيخ محمـد بخيت المطيعى وكتاب السيد محمد رشيد رضا وكتاب السيد محمد الخضر حسين وكتاب الشيخ محمد الطاهر عاشور ومقـالات الشيخين الكبيرين محمـد شاكر ويوسف الدجوى فى الصحف اليومية ، وكل ذلك قد أوضح ايضاحا لا مزيد عليه ، ثم توالت فيما بعد بحوث قوية ورسائل جامعية. تشبع هذا الموضوع اشباعا لا غاية بعده لقائل .

ولنا أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون علمـاء الازهر بالوصولية والرجعية فى موقفهم من كتاب الشيخ على عبد الرازق ، نقول لهم أكنتم تطلبون أن يسكت العلماء عن أمر فقهى أصولى يمس أصلا أصيلا من قواعد الدين فلا يجوز لهم أن يقولوا للمخطىء أخطأت وهو عالم أزهرى يعد منهم ، وخطؤه راجع اليهم ، واذا سكتوا كما تريدون أفيستحقون ان يقوموا على رعاية الدين فى أكبر هيئة علمية انشأها القانون لتدافع عن مقررات الاسلام ، ام كنتم تطلبون منهم أن يسارعوا الى تأييد الباطل ليكونوا موضع الرضا ممن يشايعون الالحاد لحاجة من حاجات نفوسهم المريضـة واذ ذاك يكون العلمـاء تقدميين متطورين !! ولنفرض أن الدفاع عن الخلافة قد صادف هوى من نفس الحاكم ، أفيكون كل ما صادف هذا الهوى مرفوضا منكرا وان كان هواه مع الحق الصريح ، وهل تغير الاحكام الثابتة مراعاة لاعتقاد زيد ، وانكار عمرو !

اننا نسائل محكمة الرأى العام بعد أن اتضحت الامور على وجه لا يقبل اللبس ؟ ايكون من دافع عن نصوص القرآن الصريحة ، وأحاديث النبوة الصحيحة وصوليا

مدلسا رجعيا يتهم فى أخلاقه وسلوكه ، ثم يكون من يحاول تحطيم الاصول الشرعية صادقا مؤمنا حر لا يجوز أن يناقشه احد واذا تجرأ عالم على نقاشه فهو انتهازى مأجور ! أى ارهاب هذا ، وممن ؟ من قوم ينتفخون بدعوى حرية الفكر ، ونزاهة الضمير !!

على أن الاستاذ على عبد الرازق رحمه الله قد أدرك أخيرا بعض ما تسرع فيه ، فحاول الرجوع عنه واعلن ذلك فى مجلة رسالة الاسلام « العدد الثالث من السنة الثالثة » وقد صدر فى شهر رمضان سنة ١٣٨٠ هـ يوليه سنة ١٩٥٩ ، اذ قال تعقيبا على مقـال كتبه الدكتور احمد امين فى هذه المجلة ، قال الاستاذ على عبد الرازق ما نصه :

« قرأت بحثـا قيما لحضرة صاحب العزة الاستاذ الدكتور أحمد امين ، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى فقلت ان دواء ذلك ان نرجع الى ما نشرته قديما من ان رسالة الاسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، وقد وقفت امام نظرى كلمة « رسالة روحانية » ولم تشأ أن تمر من غير ان تثير ذكرى قديمة لهذه الكلمة معى فقد زعم الباحثون اننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الاسـلامية شريعة روحانية محضة ، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم انفسهم ان يفعلوا ، اما انا فقد رددت عليهم اننى لم اقل ذلك مطلقا لا فى هذا الـكتاب ولا فى غيره ، ولا قلت شيئا يشبه هذا الراى او يدانيه ، اسوق هذا الحديث ليذكر الاستاذ الكبير ان فكرة روحانية الاسلام

لم تكن لى رأيا ، يوم نشرت البحث المشار اليه ، أنى رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون هذا رأيى .

هذا تراجع صريح ، لان الاستاذ على عبد الرازق قد قال فى ص ٦٩ من كتابه « ان ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها ايمان القلب ، وولاية الحاكم ولاية مادية تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية » .

ولا أفيض فى نقل ما يشبه هذا القول ، واذكر أنى كتبت بمجلة الثقافة (١) مقالا خاصا بهذا التراجع فليرجع اليه من شاء .

هذا موقف الازهر من كتاب الاسلام واصول الحكيم أيكون بعد ذلك كله موقفا رجعيا يتحدى حرية الفكر ؟

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٥٢ يناير ١٩٧٨ .

الأزهـــــر
وأيــام طــه حســـين

اسف المنصفون اسفا شديدا حين شاهدوا حلقـات الايام تعرض عرضا مفرضا مريبا على شاشة التليفزيون حيث تتجافى الحقيقة الى مبالغات زائفة تهــدف الى تشويه ما يتصل بالدين من مكاتب تحفيظ القرآن الكريم أولا ، ومن موقف الازهر من صاحب الايام ثانيا ، وهو تشويه يهز المعانى النبيلة فى نفـوس من يعرفون لرجال الدين مكانتهم اللائقة بهم ، لا ســيما وهم فى حقيقة امرهم برءا مما يقذفهم به المفترون ، اذ حملوا أمانة العلم فى الحلقات الدراسية ، وثاروا على المستعمرين ثورة عاتية كان مصدرها الدائم أزهرهم الشريف ، وسنناقش فى هدوء موقف هؤلاء الذين شاءوا أن يمسخوا الحقائق، لا لشىء سوى أنهم لا يتقيدون بمنطق العـــدل ، وأن القائمين على الاخراج المسرحى لا يلتزمون بالحق الواقع، بل لا يكادون يحسون له ادنى التزام .

ان فقيه الكتاب كما صوره الدكتور طه حسين ، ليس الصورة العامة للفقيه ، ولا يخلو الامر من أحد شيئين ، اما ان يكون شاذا فى انانيته فهو لا يمثل طائفته . واما إن يكون الدكتور طه قد بالغ فى تشويه سمعته ليبرىء

نفسه من اهمال الحفظ ، وترك التلاوة ، حتى نسى كتاب الله ! ونحن اليوم نعرف تمام المعرفة أن اختفاء ففيه الكتاب قد ساعد على الامية العلمية ، وجعل طالب المدرسة وطالب الازهر الذى لا يحفظ كتاب الله أقل منزلة فى لغته وثقافته ودينه وعربيته من زميله الحافظ لكتاب ربه ، ماذا أريد أن أقول ؟ انى أعرف ان ضياع اللغة العربية على ألسنة من يلتزمون العامية فى أحاديث الاذاعة وبعض مقالات الصحف ، فاذا حاولوا التزامها تقاذفتهم الاخطاء ، وتعاورتهم العجمة ، ان ضياع اللغة على هذه الصورة كان من بعض أسبابه ابتعاد المتحدثين عن حفظ كتاب الله ، ولو انتشرت كتاتيب تحفيظ القرآن كعدها السابق ما انحدر مستوى التعليم فى عصرنا الراهن عما نعهد من قبل ، ولو كان لدى المشرفين على حلقات الايام التزام أدبى بمشكلات الدولة الثقافية ما تجاوزوا الواقع الى مبالغات تدعو الى التنفير من حفظة كتاب الله ، وهم بين شيئين اما انهم لا يعرفون اتجاه الامة نحو ضرورة اعادة هذه الكتاتيب . فهم منقطعون عن رصد التيار التعليمى فى مصر ، واما انهم يقراون ما تكتبه الصحف من ضرورة قيام هذه الكتاتيب بدورها الثقافي ، ويريدون محاربة هذا الاتجاه ، اذ يساعد على انشاء جيل مثقف يقيم لسانه . ويحفظ لغته ودينه ، وأكثرهم عن ذلك كله بمنأى بعيد .

اما موقف الدكتور طه حسين من الازهر ، فاننا سنجعل ما كتبه بنفسه فى الايام قاضيا بيننا وبينه . سنأخذ من أقواله التى سجلها هو بمحض اختياره

ما يدل على انه جابه الازهر بالانتقاص والتشهير ، وملأ الصحف هجاءا منكرا لأستاذته وقد عفوا عنه فلم يكافأ بما يستحق ، ثم شاء صاحب الايام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، وقد بدأ وهو الطالب الناشىء بالتشهير بهم ما استطاع ، وسجل ذلك على نفسه ليكون شاهدا ناطقا بمقطع الرأى فى غرابة موقفـــه ، فكيف يكون الازهر قد ظلمه وضاق به ؟ وهو المتحرش المهاجم الجرىء ؟!

فى الجزء الثانى من كتاب الايام فصل يكشف نفسية الدكتور طه حسين ، ويفسر سلوكه الهجومى فى مجتمعه تفسيرا سافرا لا يقبل ادنى شك ، فقد سطر الفصل السادس عشر من الايام ليقول ما ملخصه انه رجع الى قريته للمرة الاولى بعد انتسابه للازهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده اخوه الكبير ، بعد رجوعه المتكرر من اغترابه فى القاهرة طالبـــا للعلم ، مبرزا بين قرنائه ، وقد غاظه هذا الاهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم ، فاذا تحدث فقيه الكتاب مثـلا فى شىء من العلم وثب عليه واتهمه بالجهل ، واذا قرأ والده بعض المأثورات هز راسه وقال عن قراءته أنهـا عبث لا غناء فيه ، واذا تحدث الناس عن علم القــاضى بالمحكمة الشرعية قال طه : انه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين . وأحق منه بالقضاء ! كل ذلك ولم يقض فى الدراسة غير سبعة أشـــهر !! واذا تحدثت العامة عن ولى شهير فى اقليمه رفع الطالب الناشىء صوته بما يدل على المعارضة الشديدة ! ثم أنهى الدكتور

طه تفصيل ذلك كله بقوله ص ١٢٨ من الفصل السادس عشر :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه وتغير مكانه في الاسرة ، مكانه المعنوى أن صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه . ولم تعرض عنه امه وأخوته . ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والاشفاق » .

هذا الذى كتبه الدكتور عن نفسه يفسر سلوكه المهاجم للأزهر فى جميع مراحل حياته ، فقد اتسع له صدر الازهر ، وتقبله مدرسوه ببشاشة وعطف . ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له . فاصطنع الخلاف . وآثر الشقاق . وفزع الى الصحف ليهاجم من يعلمونه . وماذا يبتغي بعد ذلك كله منهم ؟ وقد آذاهم بالباطل دون انصاف وسنعرض شذورا مما قاله هو وسجله على نفسه ، ليرى اتساع الصدر الرحب لدى كثير ممن قسا عليهم دون مبرر .

لقد استمع الطالب الى مدرس النحو يشرح قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » قال طه : « وقد أتقن صاحبنا ـ اى طه نفسه ـ ما اثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والاجوبة ، وأتعب شيخه حوارا وجدالا . حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار . ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط الا ضحك منه ورق له : « الله يحكم بينى وبينك يوم

القيامة » قال ذلك فى صوت يملؤه السأم والضجر . ويملؤه العطف والحنان . وآية ذلك انه بعد أن أتم الدرس . واقبل الصبى ليلثم يده كما كان الطلاب يفعلون . وضع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : شد حيلك ، الله يفتح عليك !

فالصبى يحاول الاعتراض المجحف بعد سبعةأشهر فقط من انتسابه للأزهر وهى مدة لا تتيح له مهما كان عبقريا ان ينازل شيخا قضى فى العلم والتدريس أكثرمن اربعين عاما!! ومن المعلوم ان سبعة أشهر لا تجعل الطالب يحصل مضمون متن الاجرومية فى اتقان . ولكن طه يعترض ويسرف حتى يصيح شيخه « الله يحكم بينى وبينك » ومعنى ذلك أن الاستاذ يتوجه الى من يعلم حقيقة اللجاج ليثنى هذا المكابر عن اسرافه لم ينتقصه الشيخ . ولم يغضب عليه وقد اتسع المجال للتبرم . ولكن طه لا يرعوى بل يحاول اثارة أساتذته . وهم راحمون . فاذا تحدث عنهم فى هذا الفصل اخذ يصفهم بالغيبة والنميمة والدس . وينقل اقوال الطلاب عنهم . وقد نسى ان الازهر مجتمع انسانى يجمع امثال طه . وأمثال من هم على نقيضه ! فاذا وجد الصالح فقد وجد معه الطالح ، ففيم اللجاج فى أمور مشتهرة ، لا يخلو منها مجتمع من مجتمعات الحياة ؟ ومن قال أن العلماء ملائكة لا يخطئون !

كان طه مع هذا التهجم ومقابلة الاساتذة بما يغيظهم موضع عطفهم ، يتحدث انه ارسل للامتحان الاول ذات مرة ، ليعلو قدره أن نجح ، ويزيد عطاؤه من الجراية ، قال طه ما نصه : « وارسل الى الامتحان ذات مساء ،

ومعه كتاب الى الممتحن فلما ادخل الفتى على الممتحن حياه ، واخذ منه الكتاب فنظر فيه ، ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ او صوابا ، لم يدر ، ولكن الممتحن قال له انصرف يا علامة !! فانصرف راضيا ـ ص ١٤٨ » فماذا تقول فى شعور الاستاذ نحو الطالب الضرير ، لم يرهقه فى شىء وقال له انصرف يا علامة !! « لانه يرى مثله موضع العطف ، وهو أولى من سواه بالعطاء ، فنال الفتى ضعف ما يأخذ من الجراية ، ونال خزانة فى الرواق للابسه وكتبه بعد هذا الامتحان الهين ؟ .. والطالب بعد لجوج عنيد يعارض الاساتذة ويسرف فى التهكم والاستنكار !

والشيخ بخيت المطيعى من كبار فقهاء عصره ، وقد رشح لمشيخة الازهر أيام كان طه فى عامه الثانى من الطلب . هذا الفقيه الكبير لا يثبت لمناظرته فى الفقه طويلب صغير ، لم يكد يكمل عامه الدراسى لان دروسه فى الاصول والمنطق والفقه والتوحيد ، وتصدره لدرس التفسير بعد الاستاذ الامام مما يجعل كل مناقش يقدر الخطو لقدمه قبل أن تزل ، ولكن طه يقول عنه « وكان الفتى ـ يريد نفسه ـ ربما جادل الشيخ فأطال الجدال. وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى أن حسبك فقد نفد القول ، فأجابه الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون ، ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ، فقد كان هو أيضا حريصا على أن يدرك القول قبل أن ينفد » ص ١٥٠ .

وقد تكرر الهجـــــوم على الشيخ بخيت مرات فى

الايام ! وطبيعى ان نقاش طه بعد عام واحد من انتسابه للأزهر لامثال الشيخ بخيت لا يتطلب ايضاح الحق ، فمهما كان معتزا بعقله ، فهو لم يبعد عن الشاطىء فى مسائل الفقه ، ولكن الفقيه الاصولى يفسح صدره ويصد المتضايقين من الطلاب ويقول فى ابتسام : لا والله حتى يقتنع هذا المجنون ! وأنا أسأل محبى الدكتور طه من طلابه : أكان الدكتور الكبير وهو عميد كلية الآداب يأذن لطالب فى القسم الابتدائى أن يقاطعه فى المحاضرة حتى يضيق طلابه ويتصايحوا منكرين !! ولو حصل ذلك حقيقة هل يصبر الدكتور على الفتى الناشىء ويدعه يسترسل فيما يجهل دون انكار ؟

لقد تعرض الدكتور مرات الى الشيخ بخيت كما قلنا ، وذكر فى ص ١٦٢ أنه مع نفر من أصدقائه « لم يكونوا يسمعون للشيخ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وانما كانوا يسمعون ليضحكوا منه ، وليقيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة اذا اتجهت الى اللغة ، والادب ، وليشنعوا عليه بهذه الاغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الاغلاط على شيخهم المرصفى فيقدموا اليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيخ » .

ثم زاد طه فى اغتياب الاساتذة وفى التهجم على كبار العلماء ، وعلى أعضاء مجلس الازهر ، بالذات تهجما سافرا امام الطلاب فى ساحة الازهر ، حتى تطايرت الانباء اليهم اذ ذهب احد الطلبة الى الشيخ الاكبر فأخبره بما قال طه ورفقاؤه عن اعضاء مجلس الازهر

الاعلى . ومنهم الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ راضى ، وكانوا جميعـــا فى ادارة الازهر حين بعث الشيخ الاكبر يستقدم هؤلاء الشاتمين الهازئين . فيحضرون الى مجلسه ليستمعوا ما قال عنهم الطالب ، قال طه ص ١٦٩ :

« وكان هذا الطالب ماهرا حقا . فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيرا جدا مما كانوا يعيبون به الشيوخ . ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت ، والشيخ محمـــد حسنين . والشيخ راضى ، والشيخ الرفاعى ، وكانوا جميعا حاضرين ، فسمعوا بآذانهم آراء هـؤلاء الفتية فيهم ، وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قال ، وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئا ، ولكن الشيخ لم يحاورهم ، ولم يداورهم ، وانما دعا رضوان ــ كاتبه ــ فأمره أن يمحوا أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الازهر ، لانه لايريد مثل هذا الكلام الفارغ » .

ثم قال طه بعد كلام متصل : « ثم لم يلبث أن يتبين الفتى وتبين معه صاحباه ان شيخ الجامع الازهر لم يعاقبهم ، ولم يمح أسماءهم من سجلات الازهر ، وانما أراد تخويفهم ليس غير » ص ١٧٣ .

فماذا يرى القارىء فى سلوك الشيخ الاكبر وزملائه الكبار ، أمام طلاب جاهروا بانتقاصهم ورموهم بالجهل وحب المنصب والرياء والجمود (وأقر الطلاب بما قالوا دون انكار) ثم مال هؤلاء الكبار . حقا الى العفـــــو والاغضاء ، لم يمحوا أسماءهم ولم ينكروا مقامهم فى الازهر ، ورأوا فيهم ما يرى الآباء أمام نزق الابناء !

غضب وغفران ؟ اما والله لو جرؤ طالب على انتقاص الدكتور العميد ما احتمل بقـــاءه معه فى الجامعة ؟ وما حديث الدكتور زكى مبارك معه بمنسى مجهول ؟ وهو استاذ مثله ؟ فأين هو من هؤلاء الاعلام ! اننا ننقل هنا ما خطه الدكتور بقلمه فلا سبيل الى الانكار !

ونأتى الى سقوط الدكتور طه حسين فى امتحـان العالمية بالازهر ! هذا الرسوب الذى عده السطحيون ظلما صريحا للطـــالب الشهير ، وباطلا متعمدا دبره الشخ بليل ، فاذا حللنا أحداثه تحليلا صريحا وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا منصرف ، اذ أن الطالب طه حسين قد انصرف ـ كما قال عن نفسه ـ عن دروس الازهر انصرافا تاما حين فتحت أبواب الجامعة المصرية لمثله ، ولنظرائه من عاشقى الطريقة الحديثة فى التعليم ، فهو اذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالازهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئا وخص دروس الجامعة بكل اهتمامه وكان حينما يفرغ من دروس الجامعة لا يلم الا بدروس المرصفى فى الادب واللغة نائياعن دروس المنطق والفقه والاصول والتوحيد والوضع والتفسير والحديث نأيا تاما لا اتصال من بعـــده ، بل ان الصحف اليومية قد اتسعت لقلمه كى ينقـــد دروس الازهر الشريف وأساتذته نقدا متكررا تدفعه الى ذلك نفسه الناقمة ـ لا لشىء سوى الدوى والاشتهار ـ من ناحية ، ويدفعه الشيخ عبد العزيز جاويش الى قسوة الهجوم المتكرر على الشيوخ من ناحية ثانية ، حتى عرف القاصى والدانى كراهة الطالب للازهر والازهريين وبعد انقضـــاء عشر

سنوات عليه منذ التحاقه بالازهر شاء ان يتقدم لنيل العالمية ! وطبيعى أن يستعد طالب هذه الاجازة لهـــا فيتسلح بمعرفة كتبها المعقدة وفهم موادها العلميـــة ، لان نيل العالمية بالنسبة لكل طالب ـ لا بالنسبة لطـه حسين وحده ـ كان فى ذلك الحين أمرا شاقا عسيرا ، بحيث لم يكن يحصل على النجاح غير اربعة طـلاب فى العام الواحد ، على حين يتقدم من هؤلاء عشرون طالبا فأكثر ، فالاختبار دقيق . والمواد متعددة ذات صعوبة والاساتذة المتحنون من كبار العلماء فى الازهر ، وممن لا يعلو على آرائهم رأى يوجه أو يشير . وقد تهيـــأ الدكتور طه للامتحان وهو لا يجيـــد غير علوم العربية وحدها ، انه يجيد النحو والصرف والبلاغة واللغـــة والادب ، ولكن هناك علوما صعبة عويصة لم يجلس الى الاساتذة كى يستظهرها أو لم يلم بمضمونها ويصل الى ما يبلغه طريق الفوز فى امتحانها ، هناك التوحيد والفقه والاصول والمنطق والحديث والتفسير والوضع والمقولات، ولكل علم أبوابه الصعبة ولابد أن ينجح الطالب فى العلوم جميعها بحيث لو رسب فى مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة ! جاء الطالب الى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الاليم فى سب الازهر والازهريين ، واحتقاره الصريح لـكل ما يدرسون ويتناولون من أساليب الشرح والتقرير ، وهو بعد لا يعلم فى غير دروس العربية شيئا غير ذى بال ! لقد كان عليه حين أراد أن يظفر باجازة الازهر أن يستوعب علوم الازهر أما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على اصحابها فى الصحف والمجتمعات ، ويرى من حقه ان يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فهذا

ما لا يرتضيه منصف !! قد يكون الدكتور صادقا فيما بينه وبين نفسه حين يميل الى التهوين من شأن هذه العلوم ، ولكن كان عليه ألا يتقدم الى الامتحان فى علوم لا يعتقد فى جدواها ، ولا يؤمن بالقائمين على تدريسها اما أن يسب وينقد ثم يطلب النجاح دون استعداد ، فاذا تعذر عليه واصل الهجوم والتهكم ، وكتب مقاله الشهير « ساعة بين العمائم واللحى » فهذا ما لا يرضاه منصف محايد ، يضع الامور موضعها الصحيح .

لقد كان الدكتور زكى مبارك أقرب الى الحق ، وآثر للانصاف من الدكتور طه حسين ، اذ تقدم الدكتور زكى مبارك لنيل أجازة العالمية مباهيا بمكانته المشتهرة فى الادب والصحافة واللغة ، وانعقدت هيئة امتحان برياسة الاستاذ ابراهيم الجبالى رحمه الله . وكان الجبالى على علم بمنزلة الطالب الممتحن . فقابلته . اللجنة بالابتسام المشجع ، وعرض عليه الشيخ الجبالى أن يختـــار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيه من أبواب الفقه والاصول والمنطق والتوحيد فتحير الطالب ثم اختـــار فى قلق ما رغب فيه ، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار ، مترفقة تسأله فى الاصول فلا يجيب ، وفى المنطق فلا يرد ، وكذلك فى الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه انه لم يلم بعلوم الازهر ، وخرج ليكتب مقاله . ذاكرا أن علوم الازهر هذه لن تفيده ، وأن الرسوب من حقه اذ لم يجد ميلا الى استيعابها ، اين موقفه من موقف طه حسين !!

ثم ماذا ؟

لقد تعرضت الحلقات التليفزيونية الى قضية الشعر

الجاهلي لتحمل على الازهر وزرا لم يكتسبه ، حين صورت علماءه في وضع منكر يدين بالوصولية ، ويهادن في أمور الدين ابتغاء عرض الدنيا ، ومع أن كتاب الايام لم يلم بقضية الشعر الجاهلي ، وكان المعقول أن تقتصر الحلقات على ما جاء بالكتاب ، فان المشرفين على الاخراج شاءوا أن يتحدثوا من لدن أنفسهم عن قضية الشعر الجاهلي حديثا يوهم المشاهد أنهم ينقلون عن طه حسين، فعرضوا شيخا أزهريا يتشدد في ضرورة مؤاخذة الدكتور طه ، ثم يتراجع حين يلوح له المسئولون بعرض زائل من أعراض الحياة ، وذلك محض افتراء صارخ لم يقل به أحد ، واذا أراد القارىء أن يعرف موقف الازهر من قضية الشعر الجاهلي فليعلم أنه موقف كل مسلم يغار على كتاب الله . كما سنبين ذلك في المقال التالي !! فماذا كان ينتظر المسلمون في بقاع الارض من الازهر الشريف حين يرون أستاذا جامعيا لا يطمئن الى حقائق القرآن ، بل يعلن شكه في هذه الحقائق على مئات من الطلاب المسلمين في الجامعة ثم ينتقل بقوله الى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح في كتاب يتداوله الناس ! ماذا كان ينتظر المسلمون من رجال الازهر غير ان يقفوا في وجه من يشك في حقائق كتاب الله ، ويحاول أن يزلزل عقائد الشبيبة الاسلامية في الجامعة ؟ أكانوا ينتظرون ان يسكتوا عن هذا الافك الجرىء ليرضوا أعداء الاسلام ، أم أنهم ينتظرون أن يهب العلماء في طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن في حقائق القرآن ؟ اليس من العجب أن يثور البرلمان وأن يثور أساتذة المدارس الثانوية والابتدائية ، وأن يثور

ارباب الاقلام فى الصحف اليومية على من ينكر صدق الحقائق القرآنية ثم يراد بعلماء الازهر ان يلجموا أفواههم فلا تتكلم ، وان يمنعوا اقلامهم فلا تنطق ، ليرضوا طائفة من الملحدين يسرهم أن يتزعزع الاسلام فى نفوس معتنقيه ! لقد قام علماء الازهر بواجب الدفاع عن القرآن تأدية لفريضة محتومة أناطها الاسلام بأعناقهم اذ كانوا حملة شريعته ومفسرى قرآنه ، ورسل هدايته الى الناس ! ولم يكن من بينهم من تراجع عن موقفه لينال منصبا دنيويا حقيرا كما شاء المخرج أن يفترى على الشرفاء بغيا دون حق ، ولو علم هذا المتجرىء على الاطهار أن علماء الازهر هم الذين أوقدوا ثورة سنة ١٩١٩ وفتحوا صدورهم لنيران المدافع حين تزعموا الثورة المصرية اثناء اعتقال سعد وصحابته حتى كان منبر الازهر أداة الاعلام خلال هذه الثورة العظيمة وحتى اشتهر اسماء خطبائه الكبار من أمثال على سرور الزنكلونى ومحمود أبى العيون ومحمد عبد اللطيف دراز، ومصطفى القاياتى وابراهيم سليمان ومن لا نحصى من هؤلاء الاطهار ممن جاوزوا القول الى العمل فألفوا اللجان وجمعوا الاموال وطبعوا المنشورات وقادوا المظاهرات ثم تلقفتهم ظلمات لسجون فوجدوا من تلاميذهم من حملوا الراية ، وواصلوا الجهاد ! لو علم هذا المتجرىء على الاطهار كم بذل هؤلاء الاخيار من نفوسهم وأموالهم ودماء أبنائهم فى نصرة الحرية ، ما اخرج هذا المشهد الآفك الذى ابتكره خياله الضال ، ليؤذى حملة القرآن! فكان من الآفكين المفترين ، وانى احذر هؤلاء البغاة ان

يعودوا لمثل هذا التخرص الكاذب على العلماء مرة ثانية لان الايغال فى الباطل لن يترك دون ثأر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

« ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا ، والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون » صدق الله العظيم .

الأزهـــــر
وكتاب الشعر الجاهلى

لا اريد فى هذا الفصل ان اتجنى على أحد ، ولـكن الاخلاص للحقيقة يوجب أن نؤرخ الاحداث دون محاباة او تحامل ، وقد كان من قدر الدكتـــور طه حسين ان يصبح استاذا بالجامعة يدرس الادب العربى ، والادب العربى بشـعره ونثره ميدان رحيب الانحـاء متعـدد الشعاب ، ولدارسه أن يجول فى كل منحى من مناحيه دون ملامة تلحقه ، حتى ولو أخطأ ، لان الخطأ سيجد من يتناوله بالتصويب ، ولو أن الدكتور طه حسين خالف كل معروف مشتهر من قضايا الادب الجاهلى فى كتابه الذى أحدث الضجيج ، ما احتج عليه الازهر فى شىء ، وما اندفع الى خصومته أزهرى يعلن الاحتجاج ،وقصارى ما كان يحدث ازاء خطئه ان يقوم ناقد غيور فيعرض رايه المخالف فى مقال بجريدة ، أو أن يكسر على نقده الادبى بعض المؤلفات المستقلة ، وتمضى الريح رخاء بليلة ، اذ أن النقد الادبى امر طبيعى لا يهيج جمهورا ، ولا يدفع الى قضاء ومحاكمة ، ولا يشغل نوابا ووزراء وشعبا ، لو ان الدكتور طه حسين خلص فى بحثـه عن الشـعر الجاهلى لقضايا الادب وحـدها ما اتجه اليـه الازهر

بالنقد الشديد ، ولكن الرجل ترك الادب الذى يؤلف فيه الى الحديث عن شخصيتين تاريخيتين نبويتين أثبت القرآن وجودهما ، ونسب اليهما رفع القواعد من البيت فى مكة ، ليعلن انه لا يجزم بما جاء فى كتاب الله ، ولم يكن الدكتور يخاطب علماء يعرفون موضع الخطأ من الصواب ، فيردونه عن تسرعه، ويحكمون عليه بالخطأ الصريح ، ولكنه كان يخاطب طلابا ناشئين ، يسمعون الطعن فى أخبار القرآن ، وكأنه كتاب بشرى ألفه انسان كالدكتور يخطىء ويصيب ! ثم ينشر ما كتب على الناس جميعا ! ويتضح بما لا يقبل الشك أن الدكتور قد تورط فى تبنى افتراءات خصوم الاسلام ، لان هذا الرأى بذاته قد ساقه مبشر خصيم فى كلام لا يمت الى البحث النزيه بشىء ! وقد ثار الطلاب انفسهم على ما سمعوا ، وانتقلت الثورة الى الصحف اليومية ، وقام نفر من كبار علماء الازهر بالرد على هذا التهجم ، ونادوا بضرورة اقصاء قائله عن التعليم الجامعى ! ونحن نعرف أبناء الجامعات الرسمية العريقة فى أوربا وامريكا ، ونعرف ان اساتذة هذه الجامعات قد أوتوا أكبر نصيب من حرية الفكر واستقلاله ، ولكننا ما سمعنا عن أحد من هؤلاء أنه هاجم الانجيل فى كتاب يفرضه على الطلاب ، ويجعله موضع الدراسة والامتحان! قد يشذ احد الاساتذة برأى خاص يعلنه بعيدا عن المحيط الجامعى ، ولا يحمل طلابه عبء فهمه واستظهاره ، ولكن لا يجوز لاستاذ ما ان يهاجم مقدسات دينه مدعيا انه يبحث !! فاذا هاجم الدكتور طه حسين كتاب الله

صراحة ، وهب المفكرون من ذوى الغيرة الدينية لمقاومته! أفيسكت الازهر ؟

ان كتاب الشعر الجاهلى يقـــوم على فكرة ليست بجديدة ! هذه الفكرة هى دعوى الانتحال فى هذا الشعر، وقد ثبت لدى الدارسين أن نقاد العرب من لدن عهد ابن سلام الجمحي الى عصرنا هذا قد قالوا بانتحــــال كثير من القصائد ؛ وللاستاذ مصطفى صادق الرافعى فصل رائع فى الجزء الاول من كتــابه عن تاريخ الادب العربى أشبع هذه الناحية بما لا مزيد عليه ، وقـــد قوبل الكتاب عند صدوره باحتفال رائع ، وقد أفاد منه الدكتور طه حسين اذ أشاد به فى بعض ما كتب ! فلو أن الدكتور طه قصر حديثه على الانتحال ما أوجد هذه الفرقعـــة الصاخبة ، ولكن الدكتور قد بالغ فى دعوى الانتحال مبالغة تابع فيها المستشرق الانجليزى مرجليوث ، حيث نقل اكثر أدلته دون أن يعزو اليه شيئا مما أخذ عنه ! واذا كان الاسراف فى ادعاء الانتحـــال منقود منقود ، فما كان ذا خطر يسبب هياج الناس بعامة ، والازهريين بخاصة ، ولكن ترك القضية الى أشياء تمس كتاب الله، وتلصق بالبحث الصاقا دون داع علمى قد أوقد الصدور وحق لكل ذى غيرة اسلامية أن ينهض مدافعا عن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فمن الملوم حينئـــــذ ؟ من جاء بالعيب ، أم من قـــام بالمـــلامة والاستهجان !

لقد نسى بعض المفرضين عن عمد ، محـــور الضجة التى نشأت عن كتاب الشعر الجاهلى ، وذهب بعـــد

انقضاء نصف قرن على دويها المزعج الى القــــول بأن الازهريين قد ناهضوا الحرية الفكرية ممثلة فى الدكتور طه حسين ، بل الى القول بأن الذين عارضوا الدكتور طه حسين ، كانوا أذنابا لبعض الساسة من الحاكمين ، وذيولا للقصر الملكى ، وهكذا نفترى الاراجيف الظـــالمة لتشوه الحقائق أمام المعاصرين أنفسهم ، لان من زامنوا هذه القضية لا يزال بعضهم على قيد الحياة وقد عرف ما كان كما كان ، واذا امتد التدليس الى احداث التى رؤيت راى العين ، فماذ نصنع بأحداث الزمن البعيد !

واذا كانت قضية الشعر الجــاهلى قد وصلت الى النائب العام ، ففحصها الرجل الكبير فحص القــانونى العادل مستعينا بخبراء ذوى نزاهة من الدارسين ، فان الرجوع الى ما دونه الرجل فى محضره يغنى كل غنــاء فى كشف الحقائق دون تزييف .

قرا النائب العام كتاب الدكتور ، وفحص ما قدم اليه من الشكاوى بسببه ، ولخص ما يمكن أن يكون موضع اتهام فى هذه النقاط .

أولا : أن المؤلف كذب القرآن فى ما قال عن ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة السلام حين قال فى ص. ٢٦ « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن ان يحدثنا عنهما أيضا ، ولــــكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصـــــة التى تحدثنا بهجـــرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى ان نرى فى هذه القصة

نوعاً من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهـــودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، فهى حديثة العهد ، واستغلها الاســـلام لسبب دينى وسياسى أيضا ، فيستطيع التاريخ الادبى واللغوى الا يحفل بها عندما يريد أن يتعـــرف أصـــل العربية ونستطيع أن نقول ان الصلة بين اللغة العـــربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية ، واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية ، كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية ، وأن قصةالعاربةوالمستعربة، وتعلم اسماعيل العــــربية من جرهم كل ذلك أحاديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

هذا هو الاتهـــــام الاول ، وهو صريح فى تــكذيب القرآن ، واذا كان هدف المؤلف أن ينتهى الى أن العدنانية غير القحطانية ، فقد كان فى وســـعه أن يترك حديث القرآن عن ابراهيم واسماعيل ، وأن ينـــأى عن وصم الاسلام بالاحتيال ، ثم يعالج الموضوع علاجا يعتمد على نصوص ثابتة توحى باختلاف العدنانية عن القطحانية ! ولكنه لم يجد نصوصا تسعفه فى ذلك وزعم مدعيا أن لديه هذه النصوص ، ولكنه كان يتسع فى الفـــروض الخيالية دون وثيقة ما ، بل انه نقل عن اعداء الاسلام ما افتروه دون تحقيق فى مسألة ابراهيم واسماعيل ، اذ أن بعض المبشرين وقع مقاله باسم « هاشم العربى » ليرى الناس أنه عربى غير دخيل ، وقد نص فيها على ما ردده الدكتور نافلا مدعيا ! وكل ذلك ذاع واشتهر ،

واول من أعلنه الاستاذ عبد المتعال الصعيدى (١) ، كما سجله الاستاذ محمد الخضر حسين فى كتـــابه الذى نقض (٢) به كتاب الدكتور ، وقد وجه الاستاذ محمـد طاهر نور رئيس نيابة مصر سؤالا صريحا عن هـذا النقل فقال الدكتور طـه ، اننى افترضت ذلك ولـكنى أخبرت ان هذا الفرض موجود فى بعض كتب المبشرين بعد أن ظهر كتابى ! وتوافق المبشر مع الدكتور عجيب، اما النقل عنه فأعجب ، اذ أن المبشر صـاحب هـدف مقصود حين يطعن فى القرآن دون تحقيق ، ومع استتار بعصمه من الخزى حين ينكشف افتراؤه ، ولكن الدكتور يحاضر الطلاب به مجاهرا ، ويطبعه فى كتاب ينشر على الناس متحديا ، وكأنه حق صريح .

أما مبلغ اعتقاد الدكتور فى آرائه الادبية فيتضح مداه مما سجله محضر للتحقيق الذى أجراه رئيس النيـابة معه ، ونحن ننقل منه هذا الحوار .

س : هل يمكن لحضرتكم تعريف اللغة الجـــاهلية الفصحى ، وهى لغة حمير ، وبيان الفرق بين لغـــة حمير ، ولغة عدنان ، ومدى هذا الفرق ، وذكر بعض امثلة تساعدنا على فهم ذلك .

ج : قلت ان اللغة الجاهلية فى رأيى ورأى القـدماء والمستشرقين لغتان متباينتان على الاقل ، اولاهما لغة حمير ، وهذه اللغة قد درست الآن ووضعت لهـا قواعد النحو والصرف والمعاجم ولم يكن شىء من هذا معروفا

(١) كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ٣٩٩ الصعيدى .

(٢) كتاب نقض الشعر الجاهلى ص ٧٠ للخضر حسين .

قبل الاستكشافات الحديثة ، وهى مخالفة للغة الفصحى التى سألتم عنها مخـــالفة جوهرية فى اللفظ والنحو والصرف ، وهى الى اللغة القديمة أقرب منها الى اللغة العربية الفصحى ، وليس من شك فى ان الصلة بينها وبين لغة القرآن والشعر كالصلة بين السريانية واللغة العربية ، اما يراد النصوص فيحتاج الى ذاكرة لم يهبها الله لى ، ولابد من الرجوع الى الكتب المدونة فى هـذه اللغة .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع او تقدموها لنا ؟

ج : أنا لا أقدم شيئا .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا الى اى وقت كانت اللغة الحميرية موجودة ، ومبدأ وجودها ان أمكن .

ج : مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ، ولكن لا أشك فى أنها كانت معروفة تكتب قبل القرن الاول من المسيح ، وظلت تتكلم الى ما بعد الاسلام ، ولكن ظهور الاسلام ، وسيادة اللغة القرشية قد محا هـذه اللغة شيئا فشيئا كما محا غيرها من اللغات المختلفة فى البلاد العربية وغير العـربية وأقر مكانها لغـــة القرآن .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تذكروا لنا مبدأ اللغـة العدنانية ولو على وجه التقريب ؟

ج : ليس من السهل معرفة مبدأ العـدنانية ، وكل ما يمكن أن يقال بطريقة علمية ، هو أن لدينا نقوشا قليلة جدا ، يرجع عهدها الى القرن الرابع للميـلاد ،

وهذه النقوش قريبة من اللغـــة العدنانية ، ولــكن المستشرقين يرون أنها لهجة نبطية ؛ وإذن فقد يكون من احتياط العلم أن نرى أن أقدم نص عربي يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية الى الآن نما هو القرآن . حتى سنكشف نقوشا أكثر وأظهر مما لدينا .

س : هل تعتقدون حضرتكم أن اللغـــة سواء كانت الحميرية او العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها أو حصل فيهـــا تغيير لسبب تمـادى الزمن والاختلاط .

ج : ما أظن أن لغة من اللغات تستطيع ان تبقى قرونا دون ان تتطور ويحصل فيها التغيير الكثير (١) .

هذا بعض ما جاء فى محضر التحقيق النيابى ، ويظهر منه بوضوح أن الدكتور لا يملك دليلا حاضرا على بعــد العدنانية عن الحميرية ، وأن ما رتبه على ذلك من اختلاق قصة ابراهيم واسماعيل لا يمت الى الحقيقة العـلمية بصلة ! وقد كان فى وسعه أن يهتف عاليا باختــلاف الحميرية عن العدنانية دون أن يثور عليه أحد اذا ترك النص القرآنى بمنأى عن توهيته ، ولكنه فعل !

والثانى من بنود الاتهــام فى صحيفة رئيس النيابة العامة أن الدكتور أنكر القراءات السبع المجمع عليهــا ، فزعم انها ليست منزلة من الله تعالى ؛ وأن العـــرب قرأتها كما استطاعت لا كما أوحى الله بها الى نبيه .

---

(١) نقلا عن كتاب (موقف النقد الادبى من الشعر الجاهلى ص ١٠١) للدكتور محمد رجب البيومى .

والكلام فى القراءات بحث علمى لا يضر الكاتب أن يخطىء فيه ، لانه لم ينف به أن القرآن من عند الله ، ولكنه يريد أن يثبت اختلاف اللهجات فى اللغة الواحدة كما أراد من قبل أن يثبت اختلاف المـــــدنانية عن الحميرية ! لينتهى الى التشكيك فى الشعر الجاهلى ، واختلاف اللهجات اذا تحقق لا يؤدى الى ما يريده من النتيجة ، لان اللهجة هى طريقة اداء الكلمة الى السامع مثل امالة الفتحة والالف أو تفخيمها ، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها ، ولا تلازم بين اختلاف اللغــــات واختلاف اللهجات ، فقد تكون اللغة متحدة ، واللهجـة مختلفة ، واذا كان ذلك كذلك فلا يوجب اختلاف اللهجة أن تكون اللغة مختلفة ! وكان على الدكتور الا يتعرض للقراءات بشىء ، لان القراءات لا صلة لهـــــا بالشعر الجاهلى الذى يشكك فيه ، ولكنه أراد الاثارة عمدا .

والثالث من بنود الاتهـام انه ذكر النسب النبوى بما يوحى بالاستخفاف اذ قال فى ص ٧٣ من كتـــاب الشعر الجاهلى « ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته الى الجاهلين هو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش ، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صــفوة بنى قصى ، وأن تـكون قصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفو العرب ، والعرب صفوة الانسانية كلها ! وهذا الكلام على وجهه المسرود مريب سيىء ، ولم يكن

الشك فى الشعر الجاهلى بحاجة اليه ، اذ لا يوجد لدينا شعر يثبت أفضلية عبد مناف وقصى ومضر وعدنان حتى نقول انه مختلق ! فلماذا اخذ المؤلف فى سرد هذه السلسلة دون داع ان المسلمين جميعا يعتقدون ان محمدا افضل خلق الله ، ويصدقون ما جاء به وما قاله وما زاد عن ذلك لا يعبئون به ! فكيف يأتى تأثير الدين فى انتحال الشعر اذا ثبتت اصالة العنصر النبوى ورفعته وطهارته! ان أكثر القبائل الجاهلية تفتخر بأرومتها ، وأصـــالة معدنها ، بحيث لا يقاس ما قيل فى قريش عامة ببعض ما قيل فى تميم أو أسد او طيىء ! فلم يسكت الدكتور عن فخر هذه القبائل بأصولها ، ولا يعده سببا للانتحال، ثم يحاول أن يستخف بقبيلة النبى الكريم لأمر اذا ثبت على سبيل الجدل الفرضى فلن يخدم قضيته الادبية فى قليل أو كثير ! ان مما يعزينا عن هذا التقحم البغيض ان الدكتور قد رجع عن ذلك كله حين كتب فصولا من السيرة الطاهرة تفنت بمحمد الرسول الامين ، وسجلت رفعة عنصره الكريم .

أما الاتهام الرابع فان الدكتور انكر أن للاسلام اولية فى بلاد العرب وانه كان دين ابراهيم الحنيف وذلك حين قال ص ٨١ من كتاب الشعر الجاهلى « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا كان دين العرب فى عصر من العصور ، ثم أعرضت عنه لما اضلها المضلون ، وانصرفت الى عبادة الاوثان » .

ويعزينا حين نسجل هذا الهراء أن الدكتور قد رجع

عنه فى محضر التحقيق النيابى اذ ذكر فى المحضر انه لا ينكر أن الاسلام دين ابراهيم . فاستغلوا هذا الاقتناع وأنشأوا حوله بعض القصص والاخبار .

والسؤال الباقى بعد ذلك كله هل ورد فى الشعر الجاهلى الذى يحاول الدكتور انكاره شيء يتعلق بالاسلام ودين براهيم حتى يلجأ الى تسطير ما يخالفه الواقع ؟ واذا كانت الاجابة بالنفى لا بالاثبات فلماذا يترك موضوعه الاصلى ليهيج المشاعر دون داع ! الا اذا كان المراد ان يحدث الضجيج .

هذا بعض ما تضمنه كتاب الشعر الجاهلى ، مما دعا علمـــــاء الازهر الى الثورة اليه ، وقد ثبت أن جميع ما تورط فيه الدكتور من آراء مؤذية قد نقلت عن غيره، وانى لاتساءل كيف يكون تصحيح الحقائق محاربة لحرية الفكر ؟ من ناحية الازهر ، وكيف يكون تشويه الحقائق استجابة لحرية الفكر من ناحية الدكتور ومؤيديه ؟ حتى نرى فى كل حين كاتبا يدعى أن الازهر قد هاجم كتاب الشعر الجاهلى لانه يرفض الجديد الحى ، ويتمسك بالقديم البالى ! فى حين ان الازهر بعلمائه وكتابه يناقشون القديم والجديد معـــا ! ويأخذون ما فيهما من الخير ويدعون ما بهما من الشر ! بدليل ان كتب الدكتور طه الخـــالصة للادب من مراجع الازهريين فى دراساتهم بل ان أدب الدكتور طه نفسه كان محور دراسات فى رسائل الماجستير والدكتوراه ، وقد انصفه الباحثون مصيبا ، ونقدوه مخطئا ، واذا كانت حرية الفكر شيئا غير ذلك ! فأى شيء تكون ؟

الأزهر والسلام الديني

- ١ -

ردت بعض الصحف اليومية قولا قديما للكاتب الفرنسي « موريس جودفرى دى موبين » يذهب فيه الى أن الازهر بمصر لا يسهم ايجابيا فى السلام الدينى !
وأنا أعرف ان صاحب هذا القول المسرف قد أصدر كتابا سماه « النظم الاسلامية » حشاه بأخطاء كثيرة نسبها الى الاسلام خطلا دون صواب . فاذا نسب للازهر هذا الراى الجائر فليس من المستغرب . لان من المستغرب فعلا أن ينصف الازهر من لا ينصف الاسلام .

وواضح ان الازهر يمثل الاسلام فى كل راى يبديه . فاذا دعا الاسلام الى السلام الدينى فهى الدعوة التى يحتضنها الازهر ويلتزمها اى التزام . وليس . رأى الاسلام فى السلام الدينى بعيدا عن كاتب يعالج شئون المسيحية والاسلام فى باريس . وينقل عن الامام محمد عبده رضى الله عنه آراء كثيرة سردها فى كتاب « الاسلام والنصرانية » كما يعرف سلفا ما كتبه الاستاذ الامام فى رده على المسيو هانوتو مبينا دعوة الاسلام الى السلام . ومؤاخاة العلم . واحترام الرأى المخالف ! فبالله كيف

يتحدث مؤلف النظم الاســـــلامية حديث من لا يعرف الاسلام وقد تفرغ للبحث عن الشئون الاسلامية حتى غد متخصصا فيها لدى معشره . وها هو ذا يتحــدث عن الازهر دون دراية . ولا نعذره فى خطئه المعرض . لان رأى الازهر فى السلام الدينى ذائع مشتهر فى اوربا وامريكا أذاعه شيخه الاكبر الامام محمد مصطفى المراغى فى مؤتمر الاديان ببروكسل عام ١٩٣٦ . وأذاعــه فى باريس عالم من ألمع علماء الازهر ونابفيه وهو الاستاذ الدكتـــور محمــــد عبــد الله دراز فى مؤتمر الاديان سنة ١٩٣٩ . وما زال ممثلو الازهر يعلنون فى كل مؤتمر يلتمس فيه النفع ! أفتكون محاضرات مؤتمر الاديان فى باريس بعيدة عن كاتب متخصص ، يتحدث عن الشئون الاسلامية . ويفرد المؤلفات الخاصة بها . ثم لا يأذن لنفسه أن يلتفت الى ما يدور حول تخصصه العلمى فى وطنه . بل الى ما قيل فى أمور يتصدى للبحث عنهـا مصدرا رأيه النهائى ! واذا كان ما قيل عن السلام الدينى والازهر مما لا يقنعه فلماذا لا يرد عليه بالمنطق الصائب لنعرف أن للرجل أبعادا شاسعة يجهلها الباحثون أما أن يصدر الحكم عاريا عن أسبابه وغلافلا عما قاله الفاقهون شأنه فهذا هو الجور الصريح .

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على ما قاله الامام المراغى والدكتور دراز فى موقفيهما الجهيريين . لان ما قالا منذ اكثر من أربعين عاما يدل على ان الازهر لا يلبس أردية مختلفة تتنوع وفق الاتجاهات المتعارضة . بل يلتزم بمنطق الاسلام فى مواجهة الاحداث ، وآية

ذلك ان رجال الازهر اليوم يقولون عن اعتقاد ما قاله أسلافهم الفاقهون » ، لا لأن اللاحق يقلد السالف ، بل لأن المصدر واحد لا يختلف وهو القرآن الكريم .

- ٢ -

انتشر التبشير بمصر فى الثلاثينات انتشارا اساء الى القائمين به ممن لا يراعون حرية العقيدة فى بلد اسلامى يرعى روابط الانسانية والوطنية ، وبحثت الهيئات الاسلامية أسباب هذا الاعتداء الصارخ على حريات المعتقدين وفى مقدمتها مشيخة الازهر فأدركت اصابع الاستعمار المحركة للمهزلة المنكرة من وراء ستار، فانبرت الاقلام المؤمنة تفضح ما استتر من الدسائس ، وتدين قوما يتظاهرون فى الخارج بالدعوة الى سلام الاديان . ويقيمون المؤتمرات الداعية لهذا السلام ثم جاءت الدعوة الى شيخ الازهر ليمثل الاسلام فى مؤتمر بروكسل . ولو كان الاستاذ الاكبر أسير عاطفته الشخصية وحدها لرفض الدعوة من قوم ينضم اليهم من يكيد فى الباطن . ويتظاهر بالمودة فى العلن . ولكن الامام المراغى قد اهتبل الفرصة ليدعو باسم الازهر الى سلام دينى حقيقى . وليوجد أرضا مشتركة يقف عليها دعاة الاديان المختلفة غير متنابذين ، وهو فى ذلك يصدر عن دين أمر دعاته أن يهدو الانسانية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا كان جدال فبالتى هى أحسن ، وقد استعان الاستاذ الاكبر بثقافة العصر الحضارية ، ومقررات العلوم الانسانية حين اشار فى بدء كلمته الى فكرة الزمالة بين المتدينين فكرة طبيعية . وهى ليست

نظرية فلسفية بل حاجة ضرورية ، تولدت فى النوع البشرى ومع الشعور بهذه الزمالة فان أسباب التفرق ايضا لهـا موجباتها الضرورية اذا أن الانسان لا يسير بالعقل وحده حتى تنحسم أموره مع المخالفين على وجه حاسم صريح . ولكنه يخضع لغرائز قاهرة تضطره الى مجانبة المنطق فى بعض الاحيان ولذلك كان الاخاء الانسانى العالمى امرا ميئوسا منه . ما دامت هناك شهوات تمليها الغريزة . ولن يقدر التقدم العلمى على التغلب على هذه الشهوات المتأصلة ، واذا أمكن بعامل من العوامل أن تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الانسان فانه لا يمكن ان تنطفىء تلك النار .

والتدين ـ فى رأى الاستاذ الاكبر ـ أصيل فى كل نفس . ولا بحجة الا غشاوات عارضة تنقشع أمام النظر البصير وفى هذا التدين ما يهبط بقوى الغرائز الهائجة ، فيخف من شرورها الكثيرة فالشعور الدينى اذا عمق وتأصل قل من أسلحة الانانية والتجبر ، ورفع الانسان الى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة . ودعا الى طمأنينة وسكينة تهونان الرزايا والاحزان . وبعد أن يحكم الامام المراغى فى مرارة على ما ارتكب من المآسى بسبب الخلافات الدينية . والدين منها براء . عمد الى ايضاح رأى الاسلام فى السلام الدينى فقال(١) .

وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما ، فانه فضلا عن سعيه لبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا

---

(١) مجلة الازهر . المجلد السابع ص ٦٥ .

للانسانية . وهى الزمالة العالمية بين افراد النوع الانسانى واممه . فانه بهذا السعى يحقق غرضا أساسيا من الاغراض التي سعت اليها الاديان . وعنى بها الاسلام الذى أدين به . فقد نبه القرآن على وحدة الابوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر . والمبعدة عن التناكر والاختلاف . ولم يقم وزنا لشرف المولد ، وكرم الجنس ووضع معيارا التفضل لم يعرفه الناس من قبل . وهو تقوى الله فى القرآن الكريم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وفى القرآن الكريم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

ثم تحدث الامام المراغى عن الزمالة المنشودة بين رجال الدين . داعيا الى الوئام الحقيقى . وقد اضطر الى أن يدين فى وضوح ما يرتكبه المبشرون من منكرات حين يلجئون الى ديار الاسلام . ليغروا الضعفاء بالمال والمنصب والعقار كى يتركوا دينهم دون اقناع ثم وضع النقط على الحروف حين قال :

« ومما يثير العجب ويضاعف الالم ان أهل الاديان يحشدون جهودهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق . مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة . وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج فقد تركوا التأثير على الانسان من ناحية

عقله الذى هو موضع الشرف . وموطن العزة والـكرامة واستعملوا طرق الاكراه والاغراء بالمال وغيره من الوسائل وركن بعضهم الى القوى المادية للدول . وقـد نسوا أن الايمان لا يحل القلب . بالاكراه . وأن العلم لا ينال الا بالدليل . ونسوا أن العدو جاد فى انزالهم من مكانهم . اللائق بهم وأن شرور العالم تغمر الانسانية وتطغى على ما بقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الالهية . وكان عليهم بدل ذلك كله أن يتعـاونوا على درء الخطر . وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة وهذه الاباحية التى يئن منها العقلاء » (١) .

ثم ختم الاستاذ الاكبر كلمته باقتراحات هادفة تدعو الى عدم تنمية الشعور الدينى بالضغائن والاحقاد . وتوجيه الوعظ الدينى الى الطريق الانسانى المجمع لا المفرق ، وجعل الدعاية الدينية قائمة على أســاس عقلى محض يدعمه حب الحقيقة . واستشهد بما يؤيد فكره الناصح بأصول اسلامية من آيات القرآن مثل قوله تعـالى : « افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله عز وجل « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

وقد قوبلت كلمة الامام المراغى بما هى جديرة به من الاحتفاء وليس لدعى بعدها ان يعلن أن الازهر يقف فى وجه السلام الدينى تحرصا دون برهان .

— ٣ —

اما الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فان قراءه

(١) المرجع السابق ص ٣٠٨ .

الكثيرين يعرفونه باصابة القول وجزالته وجدته . وأشهد انه ما قرأ له عارفوه مقالا أو كتابا واستمعوا الى محاضرة علمية من محاضراته الا انتفعوا بالجيد الطريف الزاهر . فهم فى دوحة مورقة ذات ثمر وظل ونسيم

وقد أحسن الازهر اختياره ليمثل شيخه الاكبر فى مؤتمر الاديان بباريس حين انعقد سنة ١٩٣٩ . فألقى محاضرة هادفة قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : ان كلمة الازهر هى الكلمة الرئيسية . وقد وافق الحاضرون بالاجماع على اقتراحين قدمهما الشيخ دراز للمؤتمر فكان فوزه الباهر فوزا للسلام الحقيقى كما ينادى به مسلم داعية غيور . وقد بدأ الدكتور محاضرته متسائلا عن سر العداوة والشحناء اللتين تعمان عالم اليوم ، وألمح الى أثر المادية فى التراحم على الاستلاب والغزو والاستعمار . وقد رأى فى الدين مرفأ النجاة . وهو يعلم ان رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون . وقد أعمل فكره ليجمعهم فى جبهة واحدة ينتفى معها النزاع ، وقال فى توضيح ذلك (١) .

غير أنا اذا رجعنا الى الاديان نلتمس منها المعونة . هالنا ما نراه من اختلافها اختلافا طالما كان من أسباب الخصومات والحروب بدل أن يساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب . فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبادىء والمطامح تصلح أن تكون محورا لتقرير السلام بين معتنقيها . وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع . هذه

(١) مجلة الازهر · المجلد العاشر ص ٥٣٣ ·

هى النقطة الاساسية التى تدور عليها اعمال المؤتمر ، وهذا هو الاشـكال الذى يحـاول المؤتمر أن يجـد له حلا .

اما أنا ــ أى الشيخ دراز ــ فأميل الى أن يكون الحل على أساس الفصل فى الاديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الاخرى . وأعتقد أن افتراق الاديان فى عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع أن تلتقى من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب . وذلك انها كلها تأمر بالعدل والاحسـان . وتنهى عن الظلم والعدوان . وكلها تسوى فى هذه المعــــاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها ، لقد نادى الاستاذ اذن بالحل العملى ، بعيدا عن الغوص الجدلى فى مشــكلات لا تصل الى نتائج ، وبعيدا عن التظاهر بالعمق النظرى تظاهرا يعود على القائل بالمباهاة دون أن يفيد المجتمع الانسانى شيئا ذا بال ، وقد ساعد الاستاذ اطلاعه المقارن الشامل على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من هندية وبوذية ويهودية ومسيحية واسلامية حديثا واعيا بصيرا ليأخذ من كل دين دعوته الى السلم المتســامح فيعتدها حجر الزاوية فى لقاء هذه الاديان ، وكان من الطبيعى أن يفضل رأى الاسلام نظريا وعمليا فى قضية السلام العالمى فيرى أن دعوة الاسلام الى الائتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين اولاهما من طريق توحيـد الغاية وذلك بدعوة الناس جميعا الى عبادة رب واحد ، وثانيتهما من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغــاية حين ارجع القرآن الكريم الشرائع السماوية الى أصل واحد ، ودعا الى الايمان بجميع الرسل والانبياء وكتبهم

المنزلة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط .
وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » بل ان الاسلام نفسه ـ فى اصطلاح القرآن الكريم ـ اسم مشترك يضعه كتاب الله على لسان انبياء الله قبل محمد ، فيقول فى شأن ابراهيم « اذ قال له ربه أسلم قال اسلمت لرب العالمين » ويقول فى شأن يعقوب « اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » ومضى الباحث يستعرض نظائر هذه الآيات .

أما الوجهة العلمية فالاسلام قد حذر من مناوشة مخالفيه أو مضايقتهم ما داموا مسالمين ، فاذا تركوا السلم الى الحرب فان الاسلام يدعو الى اعداد القوة دون أن يغفل الانصات الى دعوة المهادنة حيث تثمر خيرها دون عنت وارهاق ، فاذا لم تثمر وئاما يحفظ الارواح كان على المحارب المسلم أن يحصر القتال فى اضيق نطاق يقول الله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١) .

وفى ختام كلمته البارعة استخلص الاستاذ نتائج ثلاثا تنحصر فى أن الاديان ـ أولا ـ يجب من الآن أن تكون سبب وفاق ووئام لا مدعاة نزاع وخصام . كما ان السبب ـ ثانيا ـ فى الخصومات الدينية هو

---

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٥٣٧ .

الانحراف عن الدين لا أتباعه أما العلاج الحتمى ــ ثالثا ــ فهو العناية بين رجال الاديان جميعا بالجانب الخلقى العام لنمو العاطفة الدينية لدى المتدينين جميعا فيعيشون فى سلام .

هذا بعض ما يمكن تلخيصه من كلمة الدكتور دراز ، فاذا ضمت الى كلمة الامام المراغى وقد ترجمتا معا الى الفرنسية ووزعتا على المؤتمرين من شتى ممثلى الاديان فى الشعوب والقارات . فليس لأحد من المتحدثين عن الازهر أن يصمه بمجافاة السلام . بل ان المنصف ليقدر لممثليه تسامحهم الانسانى حين أغضوا عن اتهام خصومهم بما ارتكبوه فى ديار الاسلام شرقا وغربا من اعتداء صارخ على الحرية الدينية ، وفى وسعهم أن يستشهدوا بما ذكرته الصحف الاوربية نفسها من هذه الفظائع المخجلة ، لان الحق لا يعدم أنصاره حتى من بين مناوئيه ولكن داعيتى الازهر قد أسدلا الستار على ما كان، طمعا فى أن يميل الميزان الى الاعتدال . وارتقابا ليوم تنفع فيه النصيحة المخلصة ، والدعوة الصادقة فتغنى عن عناء كثير .

ــ ٤ ــ

وبعــد :

افيكفى فى وقتنا العصيب أن يكون السلام بين الاديان هو المطمح الامثل ، أم يجب ان تمتد بالسلام السلبى الى تعاون ايجابى امام ما يتهدد الايمان من خطر شيوعى يزحف الى كل مكان .

ان الذين ينكرون عالم الغيب مرتكنين على شبه تتسم بسمات العلم دون أن تؤسس على يقين جازم ، فى حاجة الى من يعارضهم بسلاح العلم نفسه ليثبت أن الايمان بالله حقيقة مكينة ؛ لها أثرها الحى فى طمأنة النفوس ، وبعدها عن الهواجس المريبة ذات الفزع والاضطراب ، ثم أن دعاة الالحاد يجـــدون طريقهم سهلا هينا لأنهم ينفون كل التزام جزائى فى ارتكاب الموبقات ، اذا لم يقدر لها أن تذاع على ملأ من الناس ، والنفوس بطبيعتها تميل الى التحلل من القيود فهى الى دعوات التحلل اسهل مقادة وألين عريكة مما يجعل الماديين يسبحون مع التيار العـــام ، أما دعاة الايمان فيحاولون اقامة السدود المنيعة أمام الاهواء ويدعون الى قوة الارادة وشدة لحسم نفوسا يسوءها أن تكبح بلجام ، فطريقهم شاق وعر وعليهم أن يتعاونوا متساندين ليعلموا كلمة الله ، واذا كنا نرى دعوات الالحاد تمتد وتتسع بحيث تحتل معاقل جديدة على فترات متعاقبة ، فاننا نهيب برجال الاديان أن يحموا أوطانهم من الزحف الراصد . واذا كنا بالامس نركن الى الاغضاء عمن يحاربون الأيمـــان استخفافا بأثرهم فقد أثبتت الايام أنهم يتقدمون وراء خطة مدروسة ، ويقفون جميعا متأهبين للانقضاض ،ولن تندحر جموعهم الا اذا قوبلت باعصار كاسح يستأصل الجـذور الثابتة فى الارض ، ويضع مكانها بذور الحب والايمان .

الأزهر وحرية الفكر

أراد الاستاذ توفيق الحكيم أن يجمع ما لديه من خطابات شخصية وقصاصات صحفية فى كتاب خاص يكون شاهدا على جهاده الادبى فى عمره الحافل ، فأصدر ما سماه « وثائق من كواليس الادباء » وللأستاذ ان ينشر ما يشاء ، ولكن ليس له أن يجبر الناس على أن يفهموا الحقائق على غير وجوهها الصحيحة ، كما يلوح ذلك فى كثير مما كتب ، اذ شاء أن يجعل نفسه نصيرا للحرية والفكر ، وهو ادعاء سنعرف مقدار حقيقته فى نهاية هذا المقال ، وقد كنت أوثر أن أغض عنه اولا انه تحرش بالازهر فى صفحات من كتابه ، تحرشا لا يستند الى واقع قائم ، فندد بما زعم من تدخله المتكرر فى شئون الفكر مستندا الى وهم لا أساس له ، وقد ثبت له عن يقين ان الازهر لم يناهضه فى شىء ، ولكنه سود ماسود وكأن الوهم المتخيل أصبح حقا واقعا ، اذ بلغه - كما ادعى - أن الاستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله قد اعترض على ما جاء بكتابه « يوميات نائب فى الارياف » خاصا برجال القضاء الشرعى ، فاهتبل هذه السانحة دون أن يتأكد من صحتها ثم أدلى بحديث ينعى

فيه على الازهر تدخله المتكرر فيما سماه بشئون الفكر، وكأنى بالفارس المضطهد وقد سره أن يظهر فى صورة المدافع عن الحرية فاندفع الى رد الهجوم المتخيل ليعلم الناس أنه أحد ضحايا الرأى الحر ، والفكر الجرىء ، وقد شاء أن يقرن الاسلام بالمسيحية ، والازهر بالكنيسة ، كما يفعل أعداء الاسلام ظلما دون عدل ، فقال فى حماسة :

« وقد آن الاوان لنواجه الامر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الازهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن نتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة ، وخطر التأليف ونهضة العلوم اذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى يمثل هذه الروح ، فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون ، فلما جاءت عصور النور ، وتم فصل الكنيسة عن الدولة استطاعت الحضارة أن تزدهر هذا الازدهار الذى يسود العالم اليوم ، فلا شك اذن عندى أن مستقبل مصر متوقف على ضمان حرية العقل والافكار الضرورية لكل نهضة حقيقية » (١) .

وقد توالت الصفحات فى كتاب الاستاذ الكبير لتثبت له الحقائق ان الاستاذ الاكبر لم يتدخل فى شىء يتعلق بكتابه ، وكان عليه بعد ذلك أن يرفع هذه الصفحات الظالمة من الوثائق لانها بنيت على افتراء باطل ، ولكن الكاتب أثبتها فى اصرار ، لم نسى أنها دعوى كاذبة فقال

---

(١) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ .

فى نهايتها معقبا « هذه الاحاديث والاخبار المنشورة فى صحف ذلك العهد تتعلق بأزمة الحياة الفكرية التى تعرضت لهـا لما رأيت من خطورتها على نهضتنا العقلية (١) .

وقارىء هذا الكلام يظن أن الاستاذ قد تعرض حقا لازمة فكرية ، كما يظن ان الحياة الفكرية فى مصر بنوع عام قد تعرضت لهذه الازمة بسبب تدخل الازهر !؟ وكل ذلك خطأ لا يقوم دليل واحد على صحته لدى من يزنون الاشياء بميزانها الصحيح ، ولا نحب أن نمضى بالحديث الى آفاق شاسعة تخرج بنا عن نطاق الاستاذ توفيق الحكيم الى سواه ، بل نحب فى هذا المقال ان نبين ان الاستاذ توفيق الحكيم تحرش بالازهر فى مناسبات كثيرة دون أن يكون صاحب حق فى هذا التحرش ، كما نحب أن نذكره ببعض مانسيه من بطولة الاستاذ الاكبر فى مواجهة العدوان المحتل بجبروته وطغيانه ، ليعلم من المدافع الحقيقى عن الكرامة الانسانية فى ميدانها الاصيل :

١ - يقول الاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ « ان الانتصار الذى تم (للأزهر) فى حظر كتاب (جان دارك) قد شجع على الاستمرار فى هذه الخطة » ، ولكى يكون القارىء على بينة من موقف الازهر الصائب من قصة جان دارك وموقف الاستاذ توفيق الحكيم المخطىء منهما نوجز الحديث عنها فيما يلى :

لقد قررت كلية الآداب منذ اربعين عاماً تدريس قصة

(١) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٩ .

جان دارك لبرنارد شو الكاتب الانجليزى الذائع ، فقرأها الطلاب ورأوا فى بعض ما جاء بها من الحوار على لسان احد الاشخاص طعنا فى نبى الاسلام ، فتحمس الطلاب المسلمون لكرامة نبيهم العظيم ، وطالبوا المسئولين بعدم تدريس القصة ، وكتبوا عن ذلك فى الصحف ، فاهتم وزير المعارف بالامر ، وتحدث كبار علماء الازهر يؤيدون الطلاب وفى طليعتهم الامام المراغى والاستاذ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، ولكن الاستاذ توفيق الحكيم شاء أن يدعى الحرية ـ حيث لا خوف على حريته هو من أحد فكتب ينتقد الطـــلاب الذين ثاروا لكرامة نبيهم ، والازهر الذى قام بواجبه فى تأييد الطلاب ، وقال فى ادعاء غريب بعد أن تساءل فى دهشة عن فزع الطلاب (١) .

« أن الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوربا المسيحية دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية ، ذلك ان الجميع يعلمون أن الاوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات ، وان المسيحية التى عاشت عشرين قرنا لا يهدمها عشرون كتابا ، كذلك نستطيع أن نقول فى الاسلام ان هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا وثبت لاحداث الزمان وشاهد دولا تدول وعروشا تزول ، وشعوبا تولد ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف ، أو عبارات تقال ، ان هذا الفزع منا لاكبر مسبة لدين عريق عميق، كذلك يدهشنى أن ينشأ الفزع فى جامعة عصرية ،

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٨ ، ١٩٣٩/٣/٢٠ م .

يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الاول ، وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة فلا خوف عليه الآن من مناقشة المسائل المتعلقة فى جو الحرية » .

هذا ما قاله الاستاذ توفيق الحكيم ، وهو كلام ظاهر البطلان لدى صغار الطلاب ، فضلا عن أصحاب الاقلام من المفكرين ، وقد تعرض لدحضه احد طلبة كلية اللغة العربية بمجلة الرسالة حين كتبه الاستاذ منذ اربعين عاما وهو صديق الاديب الغيور أحمد عبد الرحمن عيسى ، فسأل الاستاذ فى قوة (١) : أى برنامج من برامج التعليم فى أوربا قررت فيه كتب تطعن فى المسيح ، وتجرح سيرته ثم قررت على الطلاب فى الجامعة وفرضت عليهم فرضا لتكون من اسس ثقافتهم الرسمية ؟! ان انجلترا حرمت دراسة نظريات علمية بالجامعات احتراما لشعور الجماهير حين مست بعض أصول المسيحية ولكنها لم تحرمها خارج الجامعة ، فللكتاب ان يتحدثوا عنها كما يشاءون ، ولكن ليس لأحد أن يقرر على الطلاب ما يغرس فى نفوسهم الشكوك !؟ وسؤال الاستاذ الصديق يدل على أن الكاتب الكبير لا يفرق بين تدريس كتاب يقرر غصبا على الطلاب ، وكتاب يؤلفه انسان ليقدمه للقراء دون أن تفرضه الجامعة فرضا دون اختيار !؟ وازيد على ماكتب الصديق فأتساءل لماذا تكون أوربا والمسيحية دائما وجهة الكاتب الكبير فى المقارنة ، كما قارون الآن بين الجامعة المصرية وجامعات اوربا ، وبين المسيحية والاسلام

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

فيما نقلناه عنه ، وكما قارن بين الازهر والكنيسة في حديثه بالمقطم !؟ ان هذه المقارنة توحى ان الاستاذ يعتقد ان الاسلام كالمسيحية ، وأن رجال الاسلام يملكون من التحكم فى المصائر والعواقب مثل ما كان يملك القساوسة فى الكنيسة ، وهى مقارنة تسىء الى الاسلام ، اذ تحمل عليه أوزارا لم يقترفهـا حماته ولا تمت الى أصل من أصوله ، وهذا ما عناه الاستاذ الدكتور محمد البهى حين قال فى الرد على دعوى الاستاذ توفيق الحكيم (١) .

« ان الازهر لا يطلب سلطان الكنيسة فى القـرون الوسطى ، وانما يؤدى مهمته الروحية فوق مهمته العلمية وهى المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، وشيخ الازهر لا يجد من حرية البحث الجامعى اذا ما حاول ان ينزع الامة من تحكم فئة تدعى لنفسها من الالقـاب الثقافية ما تشاء مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمى فيه » ثم قال الدكتور البهى : « حددوا الالفاظ قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة بين نهضات الامم على أسس صحيحة ، وتخلوا قبل كل شيء عن عقيدة وجوب تقليد الغرب ، أما الايمـان أولا بوجوب تقليد الغرب فى خيره وشره ، ثم الزام القارىء بنتائج مايسمى « البحث » المبنى على هذا الايمان فذلك هو هدم حرية التفكير ، والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة فى القرون الوسطى » .

فاذا تركنا ما كتبه الاستاذان الدكتور البهى ، وأحمد عبد الرحمن عيسى ، الى ما كتبه غير الازهريين فاننا

---

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٢٢١ سنة ١٩٣٩ م .

نجد الكاتب الغيور الاستاذ محمد احمد الغمراوى يفرد للرد على كلام الاستاذ توفيق الحكيم مقالا ممتازا بالرسالة (١) تحت عنوان (أما لهذا الليل من آخر) قال فيه : أن الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة قد اكرهوا اكراها على ترك القصة المقررة ، ولكنهم لم يكرهوا فى شىء بل دفعتهم غيرتهم الدينية من تلقاء أنفسهم الى رفض هذا الهجم وأبلغوا شكواهم الى العميد ، فلم يفعل شيئا ، فاهتم بالامر شيخ الازهر ووزير المعارف ، فاذا كانت هذه قيامة ــ كما تصور الحكيم ــ فمن الذى أقامها !؟ أمن طلب تغيير الكتاب أم من فرض على الطلاب شيئا يمس جوهرهم الايمانى فلفظوه ؟؟ وأزيد على كلام الاستاذ الغمراوى فأتساءل هل تضمنت القصة نقاشا علميا وتحليلا فكريا فيما تعرضت فيه لنبى الاسلام ، أو هو حوار على لسان بعض الاشخاص لم يعن فيه بتقرير الحقائق !؟

على أن ما يتباهى به الاستاذ الحكيم من الدعوة الى الحرية الفكرية ليس أبا عذرته ، بل سبقه اليه كل مفكر اسلامى درس أصول هذا الدين الحنيف ، والاستاذ المراغى الذى لم يرض لكاتب موقفه من القصة ، ونسب اليه انتقادا مفترى على بعض ما جاء فى « يوميات نائب فى الارياف » قد خطب أكثر من مرة فى طلاب الازهر ليعلن لهم راى الاسلام فى تقرير حرية الفكر . وليرد

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

على من يخافون من تدخل الازهر فى شئون الكتابة كما وهم الاستاذ الحكيم ، فقال رحمة الله من حديث مستفيض (١) .

« ان الناس فى مصر يخشون خطر الازهر على الحياة العامة فهم يقولون أن الازهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، اذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الافكار العلمية الحرة ، هذا ما يقوله الناس ، أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الازهر حظر عليها ، لان الازهر يساير أسلافه من العلماء الاجلاء ، ومن الائمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة التى تقرؤها فى علم الكلام ، وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه، وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا فى أن يردوا عليها بالدليل ، فليس الازهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى ولكن الازهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين ، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين ، يكره هذا ، ويكره أن يشكك العامة فى دينهم ، وان يشكك النشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم ودائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون ان يخطر للأزهر ببال أن يقاومها » .

فاذا تركنا موقف الاستاذ الحكيم من قصة برنارد شو وثورة الطلبة فى كلية الاداب على بعض ما جاء بها خاصا بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم الى موقفه من رسالة

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ، و ، من الجزء الرابع سنة ١٩٣٩ .

« القصص الفنى فى القرآن » فاننا نجد المفكر الكبير يتسرع فى مؤاخـــــذة الازهر ومن ساروا سيره فى معارضة الرسالة دون أن يعرف حدود المسألة ، وكان له فى تسرعه الاول ما يدعوه الى التؤدة فى الاعتراض ، فقد ظن المسألة مسألة حرية رأى ، لا مســألة فوضى جامعة ، وكان فى تجربته السابقة عبرة عاصمة ، حتى لا يقع فى خطأ يضطر الاستاذ العقاد الى أن يصححه له ، كما يضطر عميد كلية الآداب أن يوضع للجمهور أن الذين يتدخلون فى شئون الجامعة ليسوا على شىء من الدراية العلمية تؤهلهم لهذا التدخل . وموجز القصة أن أحد الطلاب تقدم لنيل الدكتوراه برسالة تبحث فى « الفن القصصى للقرآن » وقد عرضت الرسالة للفحص فرفضها الاستاذان احمـــد امين ، واحمـــد الشايب وقال عنهـــا الاستاذ أحمد أمين فى تقــــريره العلمى « وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هى رسالة أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام لصدق التاريخ ، وأن محمداً فنان بهذا المعنى ، وعلى هــذا كتبت الرسالة من أولها الى آخرها » (١) .

ومن حق الاستاذان الفاحصان أن يرفضا كلاما يريان بطلانه ، ولكن الاستاذ المشرف على الرســالة قد أيد الطالب ، ولم ينتظر الحكيم حتى يقرأ الرسالة ، بل أرسل صيحته المضرية فى احترام حرية الفكر ، وخالف

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٤٩ ، ١٠/١١/١٩٤٧ م .

الجامعة فيما اتجهت اليه من رفض الرســالة !؟ ومن البديهى أن الجامعة لا تستطيع أن تمنح الدكتــوراه لطالب مخطىء ، فلها الحرية كل الحــرية أن تقــول للمخطىء : أخطأت ، ولكن هذا البديهى ينكره الاستاذ توفيق ويسير فى ركب المندفعين باكيا على حرية الرأى حتى يضطر الاستاذ العقاد أن يأتى بعصا موسى فتسكت المعارضين جميعا حين قال (١) :

« حرية الرأى مكفولة لكل انسـان ، ولكن لا حرية بغير تبعة ، فــكل ذى رأى مسئول وحــده عن رأيه ، وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته وليس له أن يلقى التبعات على غيره ، لأن حريته تنتهى عند انتهاء التبعة التى يحملهــــا باختياره ، فلا اختيار له فى حريات الآخرين !؟

من حق الباحث أن يبدى ما يشاء فى حدود القانون وليس من حقه أن يحمل غيره «يريد الجامعة» على تزكية رأيه وترويجه أو الاذن بأجازته ونشره ولا سيما اذ يكون ذلك الغير هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الامة كالجامعــات المصرية وما جرى مجراها فالجامعة المصرية جامعة حكومية ، ومعنى انهــــــــا جامعة حكومية : أن الزامها لطلابها هو الزام يقوم به القانون وتحميه الدولة وليس فيها للطالب أو ولى أمره خيار ... فليس لأحد ان يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دروسا تحتاج الى احتمال تبعة ، وليس له أن يلقى عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرها وتزكيها ، وهو يزعم

---

(١) المصدر السابق .

أنه حر فيما يصنع وأنها هى المقيدة أمامه فلا حرية لها ، فى رفض هذا الصنيع .

وقد سبقتنا الى النظام الجامعى أمم كثيرة .. فلم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة أكسفورد مثلا ببحث فى ميلاد السيد المسيح هل كان مولدا طبيعيا أو كان مولد خارقة واعجاز !؟ ولم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة السوربون ببحث فى تدوين الاناجيل ، هل هى من كتابة الرسل أو كتابة آخرين معلومين أو مجهولين !؟

والجـــــامعات الانجليزية تدرس من تواريخ الاديان وتدرس المقابلة بينها ، فلم نسمع قط أنهــــا اجازت لصاحب رأى أن يطلب منها اقرار اقول من الاقوال يخالف ما تلتزمه أمام جميع المتعلمين .

الى أن يقول الكاتب الكبير الاستاذ العقاد : « ليس بعالم ولا مستحق لامانة العلم من لا يقدر ولا يميز بين ما يقرره باسمه ، وما يطلب من المشرفين على التعليم أن يقرروه ، وقلما يعنينى هنا أمر رسالة بعينها وانما يعنينى توضيح الحد الفاصل فى مسألة الحرية . وهو حد منسى على ما نرى فى حسبان بعض المبتدئين ، بل بعض الادباء المعدودين !؟

ولو لم يكن هذا الحد محتاجا الى التذكير فى مرحلتنا هذه من الحياة الفكرية لما رأينا رجلا كصديقنا الاستاذ توفيق الحكيم ينساه وهو ينقد الجامعة المصرية لانهــــا رفضت تبعة تلقى عليها ، وليس من حقها أن تقبلهـــــا باسم الدولة ، وليس من مقتضى رفضها أن تحول بين

طالب من الطلاب ، أو مدرس من المدرسين وبين اعلان ما يراه بغير واسطتها اذا شاء » .

***

بلغ العقاد فصل الخطاب فى ايضاح الحق ودحض الباطل وسكت الاستاذ الحكيم فلم يستطع الرد عليه فى شيء ! وقد أثبت كلام العقاد أن الذين ينقـــدون الجامعة ويتباكون على الحرية الفكرية لا يعرفون مهمة الجامعة من ناحية ولا يعرفون حدود الحرية الفكرية من ناحية ثانية ، فأولى بهم السكوت !؟

***

وبعد .. فتظـــاهر الاستاذ توفيق الحكيم بالحرص على الحرية والغيرة عليها وتقرير ذلك عن نفسه فى كثير مما كتب وقال ، لم يكن مما يعنينا أن نكشفه على وجهه الصحيح لو لم يحاول أن يتنقص من أعلام كبار ، هم فى الحقيقة أنصار الحرية الحقيقيون ، فالامام المراغى قد جاهر على رؤس الاشهاد بحياد مصر فى الحرب العالمية الثانية معلنا أن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى حرب الانجليز والالمان ، وقد قامت الدنيا وقعدت وأبرق السفير البريطانى وأرعد فى وقت كان هو الحـــاكم الفعلى بمصر ، فلم يتراجع الشيخ الاكرم عن قـوله ، وحينما اتصـــــل به رئيس الوزراء فى منتصف الليل (حسين سرى) مذعورا من تهديد السفير ومحـــذرا الشيخ الاكبر من أن يعـــود لمثـــل ما قال ، ضحك الشيخ متهكما ، وقال له يا حسين نسيت من انت ؟ أنا استطيع أن أقيلك بخطبة واحدة من فوق منبر الازهر

أو منبر الحسين (١) ، ولكن الاستاذ توفيق الحكيم اعترف بنفسه أنه عاش غائب الوعى عشرين عاما لا يعى فظائع الطغيان والكبت والقهر ، وظل يمدح ويقرظ حتى غاب المعتدى وأمن المؤاخذة فأصدر كتابه « عودة الوعى » لينتقد من دعا الى اقامة تمثال له ظانا أن من جاء بعده سيحذو حذوه حتى اذا انكشف المستور ، صاح صاحبنا : لقد عاد الوعى ، ومضى يجمع من قصاصات الصحف ما يحمل تعريضا أليما بزعيم كبير من زعماء الكرامة الابية ، والرجولة الحقة ، ولم يسأل نفسه أين أنا منه ؟ بل أين العصا من السيف ؟

(١) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب ص ١٩٥ المطبعة المنيريه .

عالم أزهرى يدعو إلى السلام العالمى

في أوائل سنة ١٩٤٦ م بعد أن اخترعت القنبلة الذرية ، وكثر الحديث عن مصائبها الهائلة ، ورأى الناس بأعينهم فظائعها الرهيبة فى اليابان ، كتب أحد رؤساء الاديان مقالا قويا تحت عنوان : « يجب أن تختار الانسانية بين الخوف من الله ، والخوف من القنبلة الذرية » ، وجعل اهداءه لفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، وكان شيخ الازهر حينئذ ، وله من المكانة العلمية والجلال الدينى ، والنظر الفلسفى ما يستطيع به أن يفهم مغزى المقال فهما ايجابيا يدفع الى العمل قدر الطاقة لانقاذ البشر من هاوية الفناء المتربص ، وكان الشيخ حكيما رزينا ، فعمل على ترجمة المقال الى العربية ، وأمر بنشره فى مجلة الازهر ، بالمجلد السابع عشر فى الصفحات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ثم اجتمع بذوى البيان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالازهر ليدعوهم الى التفكير فيما كتبه صاحب المقال ، ولابداء الرأى من وجهة عقلية تقنع كل قارىء مهما كان مذهبه الدينى ، ومعتقده السياسى ، وموقفه الجغرافى ، ليستطيع صوت الدين العاقل أن

ينقذ البشرية من أعاصير الرعب وزعازع الفـــزع ، وقد شاء الله أن يلقى الشيخ الاكبر ربه قبل أن يجد من كتابات الكاتبين ما يعلن وجهة نظر الازهر ، فذهب الموضوع بذهابه . ولكن عالما كبيرا من أعضاء جماعة كبار العلماء هو الاستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ذو الرأى الحر ، والقلم البليغ ، كان قد احتفل بالموضوع وشغل ذهنه المفكر ، فأخذ يدون خواطره فى أوراق متناثرة ، وكان موقفه من الدقة البالغة بحيث آثر التريث المتئد ، آخذا فى حسابه أنه يخاطب الناس جميعـا بمنطق العقل وحده ، فلا مجال الى الاستشهاد بالنصوص الدينية التى يؤمن بها فريق دون فريق ، ولا الى عرض أحداث خاصة لا تمثل القاسم المشترك بين ذوى الافهام من أبناء البشر كافة ، حتى استطاع أن يخرج كتـابه الرائع « انقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضا بالحرب الذرية » وكان الظن بمفكرى العالم العربى فضـلا عن جميع المفكرين قاطبة أن يعطوا للكتاب ما يستحقه من التحليل والنقد ، ولكن العجب العاجب أن يهمل الكتاب فى حياة صاحبه ، وبعد أن لقى ربه سعيدا بما قدم من جهاد فى شتى ميادين الاصلاح العلمى والاجتماعى ، على حين ترى الصحف من يومية وأسبوعية وشـهرية حافلة بتحليل كتب معاصرة تنحو منحى الاستاذ ، كتبها نفر من مفكرى أوربا وأمريكا ، فلاقت استهواءا جاذبا لدى قوم منا يتلقفـون كل غريب بالاحتفاء والتنويه ويعرضون عما يقوله علماؤهم دون أن يقرءوه ! ولعلى أرضى ضميرى الناقم حين أتحدث عن دعوة شـيخنا

الكبير الاستاذ محمد عرفة رحمه الله فى هذه السطور .

بدأ الاستاذ كتابه بالحديث عن الحياد الايجابى ، بين الكتلتين المتصارعتين فذكر أن النـــاس يلهجون به ، ويؤيدونه فى مقالات عاطفية ، وندوات خطابية دون أن يقيموا له فلسفة نظرية تجمع الادلة المقنعة على ضرورته، على حين نرى لكل من الشيوعية والراسمالية فلسفتها المدعمة بالآراء والارقام والاحداث ، فاذا شئنا أن نؤيد هذا الحيـاد ، فلابد من ارتكازه على نظر فلسفى يقف به أمام ما ينازعه من المذاهب ، وفى هذا النطاق يؤلف الاستاذ كتابه ، والحق أن ما كتبه المؤلف لا يقف عند النظر الفلسفى وحده ، لان الفلسفة تخاطب العقـل ، وتنأى عن مؤثرات العاطفة ، وكل دعوة يتوجه بهـا صاحبها الى الناس لابد أن تخاطب العقل والعـاطفة معا ، فلو قصر المؤلف كثيرا من قرائه الذين لا يصبرون على حديثه على الاقناع الفلسفى وحـده لخسر غموض الادلة وتشابكها ، وهكذا وفق الله الكاتب لان يكون مفكرا ذا بيان ناصع ويمتع ويستميل .

حدد الكاتب وجهته الهادفة حين اعلن انه لا يتحاكم مع رؤساء الدول المتنافسة الى الدين ، اذ يرى فيهم من يجحده وبراه الهية ينخدع بها الصغار وقد شبوا عن الطوق فلا ينخدعون . كما انه لا يتحاكم الى الضمير اذ يرى فى هؤلاء من يقولون ان الضمير من وحى البيئة والتربية وانه قد يطمئن الى الشر اذا حسنت لديه بواعثه وغاياته فيظن فيه الخير كل الخير ، كما انه لا يتحاكم الى المثل العليا لانها فى رأى كثرتهم مظنـة

التبديل والتغيير ، فما يكون رائعا جليلا فى عهد من هذه المثل يكون سخيفا مبتذلا فى عهد آخر ، واذا كان الكاتب لا يتحاكم الى الدين او الضمير أو المثل العليا فانه يتحاكم الى المنفعة وحدها ! لان الفريقين من المتصارعين يهدفان الى المنفعة العاجلة ، ويخططون لها فى كل خطواتهم ، فاذا كانت المنفعة هذه هى وسيلة الاقناع لدى الكاتب ، فلابد أن يستجيب له من ينشدونها فى كل اتجاه ! وها هو ذا يثبت لهم بالمنطق الصريح أن القنبلة الذرية ستذهب بكل ما يملكون فلا نفع من ورائها حين يتحطم بها الغالب والمغلوب .

وقد أعلن الاستاذ ايمانه بالانسان ، وبما يتجه اليه من جوانب الخير لو استمع الى صوت الطبيعة فى نفسه ، واستلهم الفطرة التى تهديه سواء السبيل ، ولكنه قد حاد عن الحق حين أصاخ الى صيحات باطلة أخذت تزين له الشر عصرا بعد عصر حتى نسى طبيعة الخير ، واصبح يرى ان العدل ما تنتجه القوة ، فاذا استطاع الوحش أن يصرع ضحيته فهو عادل فى قتلها لان القوة قد أمكنته من فريسته الضعيفة ، لقد وجد هذا المنطق الظالم فى كل عصر ، وجد فى عهد الاغريق واعتنقه السوفسطائيون وبذلوا جهودهم فى تأييده بخوادع الادلة ، ومن الحق أن نقول انه وجد المعارض ممثلا فى سقراط وتلاميذه ، ولكنه لم يعدم على كر الايام مؤيديه لان حب الغنائم والافتراس مما يدعو أصحابه الى التمسك بسفسطات تقدم لهم تبريرا سطحنا لما يرتكبون ، وقد جاءت الاديان لتقيم العدالة على قسطاس سوى لا يميل ، ولكن ذوى الشر

قد اصموا آذانهم عن هواتف الخير ، ووجدوا من كبار الكتاب من يؤيد اتجاههم الظالم وكأنه يؤيد حقـــــا لا مرية فيه .

يقول الاستاذ محمد عرفة ص ١٢٩ « لقد اعتقـد الساسة ان ما يأتون من امتلاك الشعوب والسيطرة على اراضيها وثرواتها عدل ليس فيه ظلم ، لان العدل هو منفعة الاقوى . وما يفعله الاقوى فى سبيل وجوده أو فى سبيل وجود أفضل فهو عدل ليس بظلم » .

وبهذا الاعتقاد كان الاستعمار بطولة لدى المستعمرين، فاذا قاومت الدول الضعيفة من تريد استعمارها فقهرتها الامة القوية بالحديد والنار فهذا حق لا عيب فيه ، ومن هنا تسابقت امم أوربا على متلاك أفريقيا وآسيا ، وأدى هذا الوضع الى تناحر بين القـوى والضعيف ثم الى تناحر بين الاقوياء طمعـا فى الاستلاب حين ترى أمة اوربية ان نصيبها أقل من نصيب جارتها !! لقد أصبح النزاع بين قوى متكافئة تملك جميعها القنبلة الذرية : واصبح خطر الابادة متوقعا بين حين وحين !

فقد يرى المعسكر الشرقي أن بلاده فسيحة الارجاء وان دول المعسكر الغربى ضيقة مكتظة ، فاذا تكافأ التدمير من المعسكرين ، فسيبقى للمعسكر الشرقى ما يعتمـد عليه ! وقد يخطىء احد الفريقين تقدير صاحبه ، ويظن انه سيبدأ بالهجوم فيبادر هو الآخر الى ان يتغذى به قبل ان يأكله ، وتنفجـر القنبلة فتقـابل بالمثل ، وقد تسقط القنبلة خطأ حين تحملها طائرة من مكان الى مكان فتحدث خطرا يقابل بالمثل ممن ظن الخطأ متعمدا فيحدث

الفناء ، وقد ترزق احدى الدولتين رئيسا متشائم النظرة سيىء الرأى فى الحياة والاحياء فيبدأ الهجوم الذرى دون نظر الى العواقب ، ويقابل صنيعه بالمثل فترجف الراجفة ، وكل ذلك يدعو الاستاذ عرفة الى أن يقول فى ص ٥٥ :

« ليس الحاجز بين البشر وفنائهم بالقنبلة الذرية حصينا ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات المفروضة ، وان واحدة منها لتدك العالم دكا ، وهكذا تقوم الساعة ويفنى البشر » .

ان العلاج الحاسم لا يكون بالوعظ وحده ، ولكنه يتغلغل فى رأى الكاتب الى البحث عما سبب هذه الآراء العدوانية وأصلها فى النفوس هذا التأصيل ، واذا كان المؤلف قد أشاد بسقراط حين واجه السوفسطائيين وانكر مذهبهم فى البطش والاستعلاء ، فقد كان عليه أن يأخذ على افلاطون وأرسطو انكارهم للمساواة بين البشر ، لان انتشار المذاهب اليونانية فى العالم الاوربى كان مدعاة البطش الظالم ممن يظنون انفسهم أرقى من سواهم ، وقد رات اوربا فريقا من المفكرين ينكرون حق البشرية فى الحرية الشاملة ويدعون الى أن يستعبد القوى الضعيف ، وقد بلغوا فى اقوامهم مكان الرئاسة العلمية والتوجيه الفكرى حتى صاروا اصحاب مذاهب ذائعة فى السياسة والاجتماع ، وانتشرت آراؤهم انتشارا ساعد على الظلم والعدوان ، وقد تعرض المؤلف الى هذه الآراء منددا مفندا فنقل ما كتبه الفيلسوف الاجتماعى (مونتسكيو) فى روح القوانين حين قال :

« اذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا ، فانني أقـول ان شعوب أوربا ، وقد أفنت سكان أمريكا الاصليين لم يكن امامهما الا ان تستعبد شعوب أفريقيا ، لكي تستخدمها في استصلاح ارجاء أمريكا الشاسعة ، وما شـعوب افريقيا الاجماعات سوداء البشرة من اخمص القـدم الى قمة الراس ذوو انوف فطس الى درجة يكاد يكون من المستحيل أن يرثى لها ، وحاشا لله ان يكون قد أودع روحا ـ أو على الاخص ـ روحا طيبة في جسد حلك السواد » .

وهذا قول يهوى بمكانة صاحبه العلمية ، لو نزعت الغشاوات عن العيون ، كما يدل على تحجر انسـانى يجعله صخرة صماء لا تنبض بعاطفة ما ، ومثله لا يجوز أن يكتب عن روح القوانين ، فيتصدر مقعـد التحليل والتشريح ، وقد فقد نور البصيرة ، ورقة الاحساس !

واذا كانت المانيا قد اعتقدت مذهب القوة ورات في نفسها استعلاءا شامخا ، يدفعها الى منافسة استعمارية تجعلها ذات نفوذ سياسى واقتصادى يفوق نفوذ انجلترا المستعمرة الاولى ـ وقت ذاك ـ في العالم فشنت حربين عالميتين كبيرتين أخذت أولاهما سبعة ملايين من النفوس وجاوزت الاخرى هذا العدد فأضافت مليونين جديدين، اذا كانت المانيا كذلك فان اعتناق مذهب القوة الـذى بشر به فلاسفتها المتكبرون قد كان سبب كارثتيهـا المتتابعتين في مدى يقل عن نصف قرن ، فلولا دعاة القوة الفاشمة ما ظهرت النازية في المانيا ، وما انتقلت عدواها الى ايطاليا لتظهر الفاشية مواخية لها في طريق

التدمير والهـلاك ، لذلك تحدث المؤلف عن « نيتشة » فيلسوف النازية ، وعن دعوته الباطشة الى استئصال كل ضعيف بحيث لا يبقى الا القوى ! وننقل عنه هـذه الاقوال الآثمة :

« ان الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا ، فهذا اول مبدا من مبادىء حبنا للانسانية ، ويجب أن نعلم ان من أشد الرذائل حبنا للضعفاء والعاجزين اذ الخير فيما يعلى شعور القـوة وارادة القوة ، والشر كل الشر فيمـا يصدر عن الضعف » .

وقد كانت المانيا اول من اوذى بهذه الآراء ، ولكنها دفعت الثمن غاليا حتى انكشفت عنها غشـاوة الدجل الفوضوى الآثم ، ولو رزقت قادة حصفاء لتجنبوا مآرقها الدامية ، وأدركوا أفن هذه الداعية الاهوج ! وقد كانت حياته الخاصة التى انتهت بالجنون مايدفع الى مراجعة أقواله : ولكنها صادفت هوى لدى من يريد استعباد الامم فاستعبده هواه ، وخسر نفسه ودولته ، ولحقته لعنات اللاحقين .

ولم يبعد نيتشة عن « لينين » فى شىء فكلاهما يدعو الى استئصال العامة لينعم نفر محدود بالمال والجاه ، وقد ذكر الاستاذ محمد عرفة رسـالة كتبها الزعيم الشـيوعى لينين الى مكسيم جوركى الاديب الروسى يقول فيها : « ان هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ! وانما الشىء الهام أن يصبح الباقى شيوعيين » !

واذا كان المؤلف قد تحدث عن المعسـكر الشيوعى المتربص بالعالم أجمعه ، يثير دفائنه ويبعث أحقاده ،

ويجعل بأسه مسلطا على نفسه ! فان الكاتب قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال عنها : ص ٥٣ .

« ان العقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها دينا ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطىء فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه فاذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ، ولا يحسب حساب الربح والخسران وانما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة » .

نقول ان الكاتب رحمه الله قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال انها تنزل منزلة العقيدة الدينية فى حماس معتنقيها ! لقد كان ذلك متوهما متخيلا لدى من يصدقون الشعارات ، ولكن التجربة الواقعية بعد الحرب العالمية الثانية أوضحت أن الشيوعية استعمار جديد ، يؤلب الطبقات ليحتل أماكن النفوذ ، وليستنزف الثروات ، ولا يقدم للأمم المستنجدة به غذاء أو كساء أو تمدنا بل يقدم السلاح المدمر بيد ، ليعتصر ثمنه بيد أخرى من دماء الضعفاء ! ولو كانت الشيوعية عقيدة ذات حماس عاطفى لوقف الشيوعيون جميعا فى جبهة واحدة ، ولكن استبداد موسكو الدكتاتورى واغتصابها المادى قد كشفها أمام أصدقائها ، فحاربها تيتو فى يوغوسلافيا ، وانتفضت عليها الصين بحيث أصبحت تراها العدو الاول ، وهاجمتها الاحزاب اليسارية فى أوربا !! وبذلك ظهرت موسكو فى ثوبها المستعمر بحيث لا تدعو الى مذهب اقتصادى الا لتخدع به الفريسة حتى تقع وتصبح سهلة الازدراد ! ولعل المؤلف لم يكن يتصور

هذه الفجـــائع حين كتب مؤلفه ، اذ انتهى منه قبل ان تتناكر الوجوه ويفتضح الخداع .

على أن الاستاذ محمد عرفة كان صادق النظـرة ، صائب الفكرة حين تحدث عن خداع الشيوعية ، وفساد أسلحتها أمام التطور الاقتصادى فى المعسكر الغربى ، فقال فى وعى أمين : ص ٨٤ .

« ان كارل ماركس لم يكن من غرضه أن يديل الشرق من الغرب ، وانما أن يديل الضعفاء من الاقوياء ، والعمال من أرباب الاموال فآخى لهم آخية لا يقطعها المهر الارز ، والتقطتها روسيا ، ونجحت بعض النجاح ... ولكن الغرب بحنكته وبصره بالامور ، ومسايرته للزمن ، سبق فأعطى العمال ما يبتغون ، وأصبح العمال يوازنون بين العامل فى الغرب ، والعـــامل فى روسيا فيجدونه فى الغرب أنعم بالا ، وأرغد عيشا ، لان العامل فى روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب فى تقدمه وثروته فبدا مرهقا ، وأقل نصيبا فى الحياة) ومعنى هـذا ان بريق المساواة الاقتصادية لم يعد جاذبا لقوم يجدون انفسهم من ذوى الرفاهيـة على حين يرون أصـحاب المذهب الشيوعى مقيدين فى آرائهم ، منخفضين عنهم فى مستواهم المعيشى !! فكيف ـ بالله ـ يفرون من السعة الى الضيق ، ولهم عيون تنظر ، وعقول تفكر وتحكم !

وما كتبه المؤلف الكبير تحت عنوان « على من تقع التبعة » تبعة الواقعة اذا وقعت ! والدمار اذا تبع انطلاق القنبلة الذرية الحاصدة للأرواح والمتاجر والمزارع وكل متطلبات الحياة أقول ان ما كتبه المؤلف فى هذا الفصل دقيق عميق حيث يلقى بالتبعية على العلمـاء العبـــاقرة الذين اكتشفوا سر القنبلة لتضر الناس

لا لتنفعهم ، وكان عليهم أن يمضوا بجهودهم العلمية الى حيث يفيـــدون ويخصبون ويبرئون ، ثم على رجال السياسة ليجلبوا لهم صيتا مدويا فى العالم دون نظر الى خراب الامم وفناء الشعوب ، ثم على رجال الحروب الذين أصبحوا آلات متحـــركة فى أيدى الساسة والمتصدرين للزعامات عن انتفـــاخ متورم يحتاج الى استئصال ، ثم على الامم الخاضعة للســادة المتصدرين بحيث أصبحوا لا يملكون الاعتراض بل يســاقون كمـا تساق النعاج ! على هؤلاء الاربعة من الطوائف تقع تبعات الحرب الذرية ، وقد أفاض الكاتب الـكبير فى تحديد تبعات هؤلاء بما لا يقبل الجدل من منصف يرى الحق فيذعن اليه فى استسلام منطقى ، اذ ليس بعد الحق غير الضلال .

ومن الابواب الجيدة التى تحدث عنها الاستاذ محمد عرفة ما كتبه عن القومية وخطرها ، فقـد كان المؤلف انسانا كل الانســان فى نظرته الرحيمـــة ، وأحكامه العادلة ، اذ أن اعتناق القومية قد جعل الدولة انانية شرهة ترى النفع لها دون غيرها ، بل تجد من اسباب التفوق أن تقهر غيرها لتستولى على ثرواتها ،وتستعبد أفرادها ، واذا كان البشر قد تطوروا فى النـــاحية الاجتماعية من الاسرة الى القبيلة الى القرية الى المدينة الى الامة وهى التى تتمثل فيها القومية فان من الواجب ان تتطور القومية الى انسانية عادلة رحيمة ترى الكذب والغدر والخيانة نقيصه عامة تشين العـدو والصديق والقريب والبعيـــد ، لا أن يصبح الغــــدر مشروعا مع دولة دون دولة كما نرى فى عالم السياسة اليوم !!

اذ يجب أن يبقى ولاء الانسان لأخيه الانسان مهما كان من غير أبناء جنسه ولونه ولغته ودينه فانه مع ذلك كله أخوه ، وكلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد كان المؤلف متواضعا كل التواضع حين قال فى خاتمة كتابه : ص ١٢٦ .

« ان بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته ، لانهم كانوا يقدرون شيئا يشبه المعجزة أو السحر ينقذ العالم قسرا من الحرب الذرية ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسبابا واشارة الى العلة وموضعها والى الدواء الذى يزيلها وهذا شيء موكول الى رؤساء الدول » .

ونحن نقول للرجل الفاضل ، ان عليك الا البلاغ ، ولست صاحب أداة تنفيذية حتى تجبر الناس على اتباع ما تذهب اليه ، وحسبك أن رأيت الداء فدللت عليه وحللت بواعثه ، وحددت دواءه ، وما عليك ان تلزم المريض بالدواء ! فلن يكلف الله انسانا بما لا يطيق ! وأرجو أن ألتقى مع الباحث الجليل فى مقال تال يكشف عن بعض جهاده العلمى الدءوب .

حــــق مشـــروع

في بعض الاحيان تشعر أن عراكا قد نشب في غير معترك ، وأن ضجة قد افتعلت دون سبب معقـول ، فتعجب كثيرا لأناس يتناضلون في غير ميدان ، ويزداد عجبك حين ترى من هؤلاء المتناضلين من له اسمه الرنان، ودويه الكبير ، وكان الاولى بمن يحتل هـذه المـكانة المرموقة أن ينأى بنفسه عن أن يتكلم في غير موضوع .

لقد كتب مدرس للتاريخ بالازهر مقــالا في جريدة يومية عن صوم رمضان خالف فيه الحقائق الفقهية المتفق عليها ، ووقع المقال باسمه وبأنه مدرس في احدى الكليات الازهرية ، وقرأ الناس المقال في أنحاء بعيدة وقريبة من العالم الاسلامي ، فاتصلوا بمشيخة الازهر متسائلين عن حقيقة هذا الرأي الذي يشجع على ترك فريضة من فرائض الاسلام التي لا سبيل الى انكارها ، فليت شعري ماذا يكون موقف الازهر ؟

لقد بادر علماؤه بكتابة ردود شافية على المقال ، ولكن الجريدة التي نشرت المقـــــال ، أخذت تجمع الردود لتقتطف منها بعضا وتترك بعضا ، كمــــا أخذت تنشر مقالات مفرضة لاناس يدافعون عن الكاتب ويبكون على

حرية الفكر ، لتصور هذا المخطىء فى صور الفقيه العالم المجدد ! حتى التبس الحق بالباطل امام الناس ! فليت شعرى مرة ثانية ماذا يكون موقف الازهر ؟

لقد شادت مشيخة الازهر أن تدعو الكاتب ليناقشه علماؤها مناقشة فقهية ، وليظهروا له فداحة خطئه ليرجع عنه صريحا فيريح ويستريح ، ولكن الكاتب ابى أن يحضر ، وقال أقوالا تسىء الى أساتذته الذين تصدروا لنقاشه وشجعته الصحف المغرضة على التمادى فأخذت تنعى على حرية الفكر ، وتصم من يريدون أن يحقوا الحق ويبطلوا الباطل بالرجعية والجمود ، فليت شعرى مرة ثالثة ماذا يكون موقف الازهر ؟

واغرب ما يدهشك أن الذين يبكون على حرية الفكر يعرفون ان الكاتب مدرس تاريخ لم يدرس من مسائل الفقه الاسلامى غير ما درسه طالب القسم الثانوى بالازهر فقط ، فهو اذن غير عالم من علماء الفقه الاسلامى ! ولا يجوز له أن يتصدر الافتاء فى أمر لا يعلم عنه غير ما يعلم العامة فحسب ! ونحن ننكر على غير المتخصص فى الطب أن يقوم بعملية جراحية ، وننكر على غير المهندس أن يقوم بتصميم معمارى لعمارة او جسر على النيل ، وننكر على غير الصيدلى أن يهيىء دواء من عقاقير يجدها بين يديه ، لا نجد أحدا من العقلاء يرضى لغير الطبيب والمهندس والصيدلى أن يزاول ما لا يعرف من الامور ، ولكننا نجد نفرا من هؤلاء العقلاء يشجعون غير المتخصص فى الفقه الاسلامى أن يهرف بما لا يعرف ، ويتجمعون لتأييده ، وكأنهم يؤيدون الحق الذى لا شبهة فيه ، وهم حين يتنادون بالحرية يجهلون

مدلولها ، ولا يعرفون أنهم يخاصمونها حين يدعون الى الفوضى العارمة اذ يمارس كل انسان ما لا يحسن ، ومن هؤلاء من لا يجهل حدود الحرية وضوابطها ، ولكنه يشجع المخطىء على خطئه لحاجة فى نفسه ، فاذا قيل له قف عند حدك انحنى على علماء الازهر باللوم والتثريب ؟

لقد كان من كبار المدافعين عن خطأ الكاتب الدكتور طه حسين ! ومثله فى ذكائه الالمعى لا يجهل أن الكاتب يتحدث فى غير ما يعلم ، وأن للحرية حدودا تنتهى اليه، ولكنه كتب بجريدة الجمهورية مقالا كبيرا أعلن فيه أن صاحب الفتوى اذا كان مخطئا فلا مؤاخذة على الخطأ فوق أنه مجتهد والمجتهد المخطىء له اجر واحد ، والمصيب له اجران ، واستشهد بقوله تعالى « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم »، كما استند الى مبدأ التيسير ورفع الحرج ، وكأنه فقيه لا اديب واطرد به القول فذكر ان مؤاخذة المخطئين فى آرائهم مبدأ لم يكن يعرفه المسلمون من قبل ولم يكونوا يأخذون به ، وأن على العلماء فى الازهر ان يأخذوا صاحبهم بالرفق واللين معرضا بهم فى أمورهم أبعد الناس عنها ثم استعدى الحكومة كى تقف محاكمة الكاتب حذرا من الفتنة !

وقد رد على الدكتور نفر من شباب العلماء ، ففندوا ما قال تفنيدا صريحا ذا حسم ، ومن هؤلاء فضيلة الاستاذ الدكتور محمد سعاد جلال الذى نرجع الى مناقشة الصائبة حين قال (١) عن العنصر الاول من

---

(١) مجلة الازهر ـ المجلد ٢٦ ص ١,١٢٦ .

عناصر الدفاع التى تقدم بها الدكتور طه حسين ! ان الزعم بأن الخطأ على الاطلاق ليس فيه مؤاخذة غير صحيح واقعا وقانونا ، فان الناس فى الخطأ رجلان ، رجل يزاول عمـــــلا مشروعا له كالفقيه المتخصص ، والطبيب المؤهل ، يفلت الصواب عن أحدهما فى بعض أمره ، ويقوم الدليل المعتبر على نفى الاهمال والتقصير، وسوء النية عن كليهما ، فترتفع المؤاخذة عنهما قانونا وشريعة ، ولو تكلف أحد غير مختص فأبدى رأيا أدى الى سوء العـــــاقبة لاستوجب المؤاخذة حين ادعى ما لا يعرف فسبب الضرر ، ليس الخطأ على الاطلاق معفوا من جملة المؤاخذة ، ولكنه خطأ المتخصص حين يجتهد فيزل عن غير عمد .

أما قول الدكتور أن المسلمين لم يسبق لهم مؤاخــذة المجتهدين من المخطئين ، فقول مردود صاحب الفتــوى الذى تحدث عن الصوم دون علم ليس مجتهدا ، وليست لديه وسائل الاجتهاد ، وقد حدد علماء الاصــول فى كتبهم المتداولة ، ومعروف ان الاجتهاد انما يكون من أصحابه الاصــلاء فيمــا لا يصطدم مع نص قاطع ، أو اجماع ثانيا ! وفتوى صاحبنا تصطدم بالنص ، وتعارض الاجماع فهى ابتداع لا اجتهــاد ، وقد عزر عمر بن الخطاب من يبتدع فى أمور لا يعلمها ! فالمؤاخذة حينئذ مشروعة ولها سوابق مدروسة !

واذا كان الدكتور قد نصح لشيخ الازهر أن يرفق بصاحب الفتوى قبل الشروع فى محاكمته ، فان الشيخ الاكبر قد فعل ذلك قبل أن يطلب محاكمته ، اذ دعا الكاتب الى النقاش فى لجنة علمية دون محاكمة لنبين له خطؤه

الذى لم يقف عند نفسه بأن تعداه الى الأزهر جميعا اذ وقع المقال بما يثبت انتماءه الى احدى كلياته ! ولكن الكاتب قد اشتط ورمى اساتذته بأنهم كرجال الكهنوت وانه لا يعترف بهم ! فماذا يريد الدكتور من الازهر بعد ذلك ! أيريد أن يكست عن اهدار فريضة نسب اليه التهاون بها ، وتساءل الناس عن صحة هذه النسبة الى الى الازهر وأرسلوا برقيات الاحتجاج !

هذا بعض ما ساقه الاستاذ محمد سعاد جلال ، واتفق فيه مع غيره فى مقالات ذاعت ورنت ، لان الموضوع قد شغل الناس وقتا طويلا ، اما لجنة المحاكمة الازهرية فقد الفت لتحق الحق ، وكانت المناقشة بمحضر رجال القضاء من وزارة العدل لتأخذ صيغتها العادلة وكان مع الكاتب محامود الدين يدافعون عنه فى مجلس النقاش وسنلم بخلاصة ما دار فى المحاكمة ليرى القارىء أكان الازهر مشتطا يحارب الحرية ، أم منصفا يدعو الى الحق بعد أن تعذر عليه أن يأتى الكاتب للنقاش معه دون محاكمة حين استمع لمن اغووه وصدوه ، ولا أصدق من محضر المحاكمة الذى وقع عليه المجتمعون من ازهريين وحكوميين ، اذ هو الصورة المطابقة ، وعنه ننقل ما كان (١) .

ان المدعى عليه لم يجادل فى أن هذا المقال قد صدر منه ويتضمن ما يلى :

١ ـ قوله : ومن هنا رخص الله فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الأذى .

(١) مجلة الازهر ـ المجلد ٢٧ ص ٦١ .

٢ ـ قوله : فمن يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا ، فان لم يجد فلا جناح عليه أن يفطر ولا يطعم .

٣ ـ يدعو الكاتب المفطرين لعذر الى المجاهرة بالافطار .

٤ ـ يضلل العامة بذكر احاديث توهم القراء انها ادلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر لادنى أذى مع أن هذه الاحاديث واردة فى السفر والجهاد فى سبيل الله .

٥ ـ أفتى المفطرين بعذر بأن عليهم الفدية ، وسكت عما يجب عليهم من القضاء ، ليوهم الناس أن القضاء غير واجب .

٦ ـ استعمل آية شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فى غير موضعها تضليلا للناس .

٧ ـ قال ان شريعة الصوم لم تفرض الا على من شغف به ، وقدر عليه ، ممن يؤدونه دون برم أو ضجر .

وهكذا كله مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ، ولاجماع المسلمين من لدن الصحابة الى اليوم ، ومن قال به غير قائم بأمانة العلم الذى درسه ، ولا بمؤتمن على القوامة على أبناء المسلمين ، ليبصرهم فى أمر دينهم ، ويتضح ذلك من نقض ما قال بالدليل :

١ ـ قوله : ان الله رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الاذى ، يؤدى الى هدم ركن الصيام ، والغاء فريضته ، لان الصوم لا ينفك عن

المشقة ، فهو تكليف ذو الزام وحقيقة الصوم هى حبس النفس عن مألوفها ، وذلك مما يشق عليها ، واذا كان الله قد رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا ، كان كل صائم قد رخص الله له فى أن يفطر ، ومعنى ذلك أن الصوم ليس فرضـــا على كل مكلف بل هو امر جوازى لا وجوبى ، وقد فهمت ذلك من المقال صحيفة انجليزية تصدر بالهند ونشرت مقالا تحت عنوان « صيام رمضان غير واجب كما يرى أستاذ مصرى » .

٢ ـ قوله : « من يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا فان لم يجد فلا يحتاج عليه أن يفطر » يتضمن امرين ، الامر الاول : ما افاده الاتهام السابق من أن كل من شق عليه الصوم او ضايقه فليس عليه أن يصوم ، والثانى : انه جعل الواجب على من افطر لما اعتبره عذرا أن يطعم عن كل يوم مسكينا ، وسكت عن وجوب القضاء ، والسكوت فى معرض البيان يفيد الحصر ، وهذا مخالف لما أجمع عليه الفقهاء من وجوب القضاء على كل من افطر لعذر يرجى زواله ، ومناف لصريح قول الله « ومن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر » وكيف يعقل أن يوجب الله القضاء على المريض والمسافر مع وضوح عذرهمـــــا ، ولا يوجبه على من افطر لعذر دون عذرهما من كل وجه ، وهو على التحقيق ليس بعذر أصلا ، وسكوته عن القول بالقضاء قد يكون جهلا للأمر الذائع ، والجاهل لا يصح له أن يفتى ، وقد يـكون تلبيسا على الناس ، وهـذا افحش واسوء .

٣ ـ دعوته المفطرين بعذر الى المجاهرة بالافطار ، واعتبارها شجاعة ايمان ، وقوة دين ، هذه الدعوة مخالفة لما اجمع عليه سلف الامة من ضرورة التستر عن الناس على من يفطر بعذر صحيح حرصا على حرمة الشهر ، واحتراما للتقاليد الدينية ، وبعدا عن مظان التهم ، فليس اذن مايدعو اليه من المجاهرة سنة حسنة، ولكن بدعة وضلالة .

٤ ـ ضلل الكاتب العامة بأحاديث ساقها فى غير مساقها ليوهم أنها أدلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر الأدنى أداة أذى من غير أمانة فى النقل ، ولا تحر فى الحقائق مع تحريف فى الادلة بالزيادة والحذف عن عمد مقصود ، لان الاحاديث التى ذكرها جميعها قد وردت فى اباحة الفطر للمسافر ، وعنون لها جامعو الاحاديث بعنوان يدل على ذلك ، وتطبيق هذا على الذين يؤذيهم الصوم ولو أقل أذى تلبيس على القراء .

هذا ـ الكاتب مثلا ـ ذكر حديث أنس رضى الله عنه هكذا « وعن أنس رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا الصائم يعيب المفطر ، ولا المفطر يعيب الصائم ، ومن قرأ هذا الحديث بهذا السياق يفهم منه أن المقيم فى بلده لو أفطر ولو من غير عذر لم يكن فى فعله ما يعاب به مع ان الحديث فى صحيح البخارى هكذا « عن أنس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » والحديث فى صحيح مسلم هكذا « سئل انس عن صوم رمضان فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله فى

رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » والحديث فى تيسير الوصول بهذا النص « عن انس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فلا الصائم يعيب على المفطر ، ولا المفطر يعيب على الصائم » فحذف كلمة « نسافر » وهى موضع الاستنباط من الحديث دليل على قصد الاتهام والتدليس .

واستشهد التقرير بنص آخر من الحديث النبوى تصرف فيه الكاتب بما يوجب الابهام وذلك غير سبيل الباحثين ، ولا نطيل بذكره .

٥ ـ افتى المفطرين بعذر بأن الذى عليهم هو الفدية ، وسكت عن وجوب القضاء وذلك منابذ لصريح النص القرآنى .

٦ ـ استشهد الكاتب بالآية الكريمة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » استشهادا يدل على انه لا يعرف مدلولات الالفاظ ، ولا طرق استنباط الاحكام ، اذ ليس بها بيان لحكمة مشروعية الصوم من قريب أو بعيد ، وهو يسوقها لذلك ، وانما هى تتضمن أمورا هى الاخبار بأن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وايجاب الصوم على من شهده ، واباحة الفطر لمن كان مريضا أو على سفر مع ايجاب القضاء عليه ، وحكمة جواز الافطار للمريض والمسافر ، فكيف يفهم من النص الواضح غير ما ينطق به في جلاء .

٧ ـ قال الكاتب ان الصوم لم يفرض الا على الشغوف(١) به القادر عليه ، الذى يؤديه بدون برم أو ضجر ! ومعنى ذلك ان من لم يستوف هذه الشروط الثلاثة فلا يجب عليه الصوم ، واجماع المسلمين منعقد على أن الصوم واجب على المسلم المستطيع ، برم به أو لم يبرم ، ضجر او لم يضجر ، شغف أم لم يشغف لصريح قوله عز وجل « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ثم ان هذا القول مناقض لقوله فى أول كلامه ان الغرض من الصوم هو تعويد النفس الصبر على المكاره ، وقوة الاحتمال فى النوازل ، فأين اذن الصبر وقوة الاحتمال بعد أن أباح الكاتب الافطار لمن يحس القليل من الاذى ؟

أما التمسك بقاعدة التيسير ورفع الحرج مما اشار اليه الكاتب ، والمع اليه الدكتور طه حسين أيضا ـ فقد بين الفقهاء مواضع التيسير ورفع الحرج بما لا يتطرق اليه الاحتمال ، وقد وضح التقرير معنى الحرج والتيسير بما يشفى الفليل ، وبما نطيل كثيرا لو استوعبناه هنا ، وقد شغل صفحات هامة من مجلة الازهر هى (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) من المجلد السابع والعشرين ، فمن اراد الاستقصاء المتتبع المستوعب فقد عرف المصدر الذى أنقل عنه ليجد ما يشبع من الدليل .

ثم ذكر التقرير فى خاتمته أن الكاتب لو سلك مسلك الباحثين فى الاجتهاد او ترك قولا واخذ يقول ولو كان مرجوحا لاعتبر ذا رأى علمى ، ولكنه سار على غير هدى ، وخالف النصوص الصريحة والاقوال المجمع عليها دون

---

(١) هذا ماجاء بالتقرير ، والافصح المشغوف .

استناد ما ، وحرية الرأى التى يدعيها ويتشدق بها من ابدوه توجب عليها أن ينزل عند رأى الجهة الادارية التى يتبعها فيحضر أمام لجنة التحقيق التى شكلت لمناقشته كى يقرع الحجة بالحجة ويناهض الدليل بالدليل باسطا وجهة نظره فى جلاء ، ولكنه أبى ذلك ، وأصر على موقفه فى الامتناع .

ثم قرر مجلس المحاكمة حضوريا بعد ما تقدم بأن يبتعد بالكاتب عن وظيفة التدريس الى وظيفة اخرى كيلا ينقل عدواه الى الطلاب !

فاذا أراد القارىء رأيا صريحا فى محاكمة الكاتب ، وقرار المجلس ، فاننا ننقل له رأى محاميه الذى تولى الدفاع عنه أمام المجلس ليعلم الناس جميعا كيف دار النقاش فى حرية وأمانة ونزاهة ، وكيف اعترف بذلك محامى الكاتب وهو الاستاذ على أيوب وزير المعارف الاسبق اذ كتب عقب المحاكمة مقالا بجريدة الاخبار ، قال فيه (١) :

« لم أجد أنا وزملائى المحامون من الشيوخ الاجلاء واعضاء مجلس التأديب تجهما أو انقباضا وكانت ابتسامات التشجيع وايماءات الرضا تطالعنا منهم دائما، وكان حسن الاستماع مع الحلم والاناة يهون على الدفاع من دقة الموقف وثقل العبء !

وقد اشترك فى ادارة المناقشة الاستاذ زكى شرف وكيل وزارة العدل ، وأحد أعضاء المجلس ، فأعاد لنا

---

(١) أعادت مجلة الازهر نشر المقال بالمجلد ٢٧ ص ٧٢ تحت عنوان (شهادة) .

ذكرى مجالسه بالقضاء حيث يتجلى ما يزدان به هـذا القاضى من نفاذ البصيرة ، وأصـالة الرأى ، وصفاء الذهن ، واشترك الاعضاء الآخرون فى المناقشة ، فلم نجد فى أحد منهم تعنتا أو صلفا أو خشونة ، وتبدت منهم رغبة صادقة فى اقامة العدل واحقاق الحق .

وقد أسفت للسرية التى فرضها النظـام على مثـل هذه المحاكمات ، فليت الكاتب حوكم علنا ، وعلى مشهد من الناس ، اذن لتبين للجمهور أن أعضاء المجلس لم يكونوا قضاة تفتيش ، ولم يكونوا ممن يكرهون حرية الرأى أو يضيقون بها ، أو ممن يزعجهم الرأى الطليق من كل قيد كمـا أن المجلس لم ينعقـد ليصدر قرارا مبيتا ، أو حكما مفروضا صدرت به الاوامر من قبل ، وقد يكون مجلس التأديب أخطأ أو أصاب ، فهذا أمر لم يقل فيه القضاء الادارى كلمته بعد وحسب السـادة أعضـاء المجلس انهم استهدفوا الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبذلوا فى سبيله غاية الجهـد ، فلهم أجرهم عند الله وهو نعم الاجر .

هذا بعض ما قاله الاستاذ على أيوب ، وهو محامى الكاتب الذى تقدم بدفوع شكلية وفرعية رفضها مجلس التأديب بالدليل الملزم ! أتكون شهادته تلك كافية لاسكات من يدعون أن حرية الفكر قد وئدت فى الازهر بحيث لا يجد أزهرى منفذا لقول جرىء !! ولا ادرى لم تكون الجرأة عندهم محمودة اذا صادمت الحق الصريح !

الخاتمة

بين السياسة وحرية الفكر

ينطق الأزهر باسم الاســــلام فيما يقوم به علماؤه المخلصون من أعمال هادفة ، حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى ثقة وايمان ، وفى الصفحات الماضية الماع الى بعض ما تحملوه من أعباء حين واجهوا الطغيان السياسى ، والارهاب الفكرى فصدعوا لكلمة الحق دون مواربة أو استخذاء .

والنضال عن حرية الوطن لا يختلف عن النضال عن حرية الفكر ، لان الاحتلال السياسى لا يجد متنفسه الفسيح الا حين تلجم الافواه ، وتكمم الاقلام ، وحينئذ يسود الصمت القاتل لتمثل خلفه مشاهد الاستبداد ، وليصبح الطغاة آمنين على انفسهم ، يمارسون عدوانهم المنكر ، دون أن تزعجهم صيحات الاعتراض ، ودون أن يجدوا من يهتف بدعوة الاســـلام الى محاربة الفساد سياسيا وفكريا ، وما كان للأزهر أن يستكين ، وقد ناداه القرآن بقول الله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ان نور الحرية السياسية ونور الحرية الفكرية ينبعان من مشكاة واحدة ، فلن ترى مناضلا سياسيا صادق الوطنية الا وهو نصير للحرية الفكرية ، ولن تجد مدافعا عن الرأى الحر الا وهو عدو للاستبداد السياسى، والطغيان الاستعمارى ، وقد يكون المناضل عن الناحيتين زعيم واحد يؤدى قسطه السياسى فى مواجهة المستبد وقسطه الفكرى فى نصرة الحقيقة ! وهكذا كان الصفوة من علماء الازهر يحاربون الفساد فى شعبتيه دون أن يحسوا افتراقا فى المنهج ، أو تشعبا فى الطريق ، وقارىء الصفحات السابقة يلمس هذا التواؤم المتسق فى وضوح سافر ، دون أن يحتاج الى من يضع له الخطوط العريضة تحت السطور ، ليجذب انتباهه الى معنى قوى يخاف أن يخفى عليه فى سرعة القراءة ، لان الامر من النصوع بحيث لا يخفى على متأمل دقيق .

وهذا الكتاب فى نصفه الاول يصور وقفات ساطعة لأعلام الازهر فى مجابهة الطغيان السياسى ولعل مما يزيد من تقديرها الامين ، أنها قرعت الاسماع ، فى أحلك عصور الاستبداد والسياسى ، كالعصر العثمانى ، حين فقدت البلاد استقلالها وحريتها ، وحرص الولاة من الاتراك على أن يخمدوا كل صوت ينادى بعزة مصر ! بل حرص هؤلاء على أن يئدوا التعليم وأدا لا رحمة فيه ، ولكن علماء الازهر وحدهم ظلوا من الناحية التعليمية ، يواصلون جهدهم الدراسى عن طواعية ، دون أجر مادى تنفقه الدولة على المعهد العلمى الوحيد ، بل كان العلماء يتعلمون طلابا ، ثم يتصدرون للتدريس شيوخا ، دون أن يمنحوا من الدولة مليما واحدا ، كان العلم فريضة

محتومة يقوم بها علماء الازهر ابتغاء وجه الله ، ثقة منهم ان الازهر وحده مصدر الاشعاع للعالم الاسلامى فى هذا العهد المضطرب ، وأن عليـــه أن يعلم من يفد اليه من شتى البلاد الاسلامية ، ليجعل من الوافدين رسل علم يتفقهون فى الدين ، وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، هذا من الناحية التعليمية أما من الناحية السياسية فقـد كان علماء الازهر ألسنة الشعب المصرى حين تهب العواصف، وتمتد أطماع الولاة والمماليك الى المتاجر والمساكن والحقول ناهبة مغتصبة ، هنا يتجمع الشعب فى الازهر ليبلغ شيوخه ما نزل عليه من بلاء ، وهنـــا يتحمس الشيوخ لمحاربة الطغيان فيقودون الجموع الى مقر الحاكم ، طالبين أن يعود الحق الى نصابه ، وأن يقصر المعتـدى عن عدوانه ، وفى مواقف سليمان المنصورى احمد الدردير ، وعبد الله الشرقاوى ونفر ممن ألمعنا الى جهادهم الباسل ، ما يدل على زعامة أصيلة لرءوس الازهر فى مواجهة الباطل ، وتتكرر هذه المواقف بتكرار الأحداث ، فنرى فى عهود الحملة الفرنسية وعصر محمد على وعهد اسماعيل وزمان الثورتين العرابية والمصرية ما قام به الازهر من توجيه سياسى ، لم يقصر على القول، بل امتد الى الفعل ، فناضل الشيوخ ، وتعرضوا للقتل وللسجن وللنفى وللعزل ، ولكن ذلك كله كان مصدر فخر واعتزاز لمن جاهر بالحق وواجه العـاصفة ، فأراح ضميره ، وأرضى ربه ، وضرب المثل للنـاشئة ، كى يسيروا على الدرب فى قوة ، واثقين بسلامة اتجاه ، وعظمة المآل .

فاذا تركنا النضال السياسى الى النضال الفكرى ،

فاننا نجد جهد الازهر كان أشق وأصعب لان سيطرة الاستعمار ، قد مكنت لبعض الغلاة من عاشقى الثقافة الغربية ان يهاجموا أصولا اسلامية قام الازهر على حمايتها ، بل ما أنشىء الازهر منذ بدء حياته الا ليذود عنها ، فصدرت كتب تمس المقررات الاسلامية فى أصولها الصميمة مدعية سعة الافق وشمول الثقافة ، وتغلغل النظر ، ومواكبة الحضارة ، ومؤاخاة الرقى الفكرى ، فكان لابد للأزهر من أن يقرأ هذه الكتب ، وأن يقوم بتفنيد ما يراه موضع التفنيد ، ولم يفسح معارضوه صدورهم للراى المخالف ، بل ذهبوا الى اتهام العلماء بالرجعية والتخلف ، وضاقوا بمعارضة الازهر ضيقا يدل على أنهم يكرهون الحرية الفكرية اذا اتجهت غير ما يتجهون ، وعاشق الحرية الصادق ، هو من لا يقصرها على نفسه وحدها ، بل يراها ملكا خالصا للناس جميعا ، فلكل دارس أن يفصح عن رأيه فى جهارة وسطوع ، وقد سلك الازهر سبيل الحق فى نقض ما يراه مخالفا لمقررات الاسلام ، فأخذه الرعد من كل مكان ، وامتنع معارضوه أن يقارعوا الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق ، واندفعوا الى سخرية ماكرة ، وتهكم مسخف ، ولو أخلصت النيات ، لسار الجدل فى طريقه الهادىء دون أسفاف ، وقد مضت الايام ، فتمحصت الحقائق ، وذهب الزبد جفاء ، وبقى ما ينفع الناس ، ورجع كثير من المغالين عن شططهم ، فسلكوا فى بحوثهم وجهة مطمئنة ترضى الازهر ، فاعترف لهم بسلامة العودة ، وحسن العقبى ، ولنا أن نثق فى عدالة السماء حين أخذت بناصر الحق وبددت سحب الباطل ، فسفرت الحقيقة دون

حجاب ، وقد عرض هذا الكتاب لبعض ما ناضل به الازهر فى حومة الرأى ، فجلا وجهة نظره فى صـــدق ، وترك للقارىء أن يتأمل فى حيدة بعض ما دار من العراك، وكنت آمل أن يتسع المجال لمناقشة قضايا مماثلة ، ولكن الحيز المحدود يحول دون الكمال ، ولعل المستقبل القريب يسمح بالعودة الى الاستيعاب فى كتاب آخر ، لتنتظم الحلقات فى سلسلة وافية تدنى البعيد .

أما دور الازهر فى الدعوة الى السلام العالمى ، ولقاء الاديان على صفاء تحتمه أمانة العقيدة ، وسمو الهدف، فقد كشف المؤلف عن حقائق صريحة فى هذا المجال ، ولعل فى تسجيلها ما يؤكد أهميتها البالغـــة وما يدعو رجال الاديان فى شتى البلاد أن يتعاونوا تعاونا تاما فيمـــا بينهم ، لينقذوا الانسانية مما يتهددها من أخطـــــار الشقاق ، وليقفوا أمام دعاة الحـــــروب ، ومخترعى الاسلحة المدمرة وقفة من ينذر بالخطر الماحق وهو على وشك الوقوع .

أما الصـــفوة من أعلام الازهر ممن ترددت مواقفهم الرائعة فى هذا الكتاب ، فقد استحقوا خلود الذكرى بما قدموه من نضال ، وهم بعد قدوة حسنة للناشئة فى دور العلم على اختلاف فروعه ، اذ تجاوزوا القول الى العمل فنزلوا الى الميدان مجاهدين ، وحسب هذا الكتاب أن يكون حافزا على اقتفاء الاثر الصـــالح ، داعيا الى المسعى الحميد ، وذلك كله هدف رشيد .

الأزهر في عيده الألفى

ألفَ عـام يا سرعــةَ الأيّــام
كيف يحصى مــــداك بالأعـوام ؟

سوفَ يبقى الإســلام ما بقى الدّ
هرُ وتبقى منـــارةَ الاســلام

سيظلُّ القـــرآن فى أبد الـــكو
ن شـــفاء لــكل داء عقـــام

هو وحيُ الرّحمـــن قام على تفســ
ـيره منك صــفوةُ الأعـــلام

شرحوه ففـــاضَ نورا عليهـــم
فيضانَ العقـــول بالالهـــام

قُورنوا بالزمخشـــرى وبالفــــرا
ء والفخر ، والرءوس العظـــام

ســـيظل الحديثُ بالأزهر المعمو
ر وِرْداً منضـــرَ الأكمـــام

حيث أشْــياخُه رواة ثقـــات
كلُّ حَــبْر له مَــكان الإمام

سبَروا غَوْرَ مُســلم والبخـار
يّ وما في الصحاح من أحــكام

سوفَ تَبقى شريعــةُ الله نَهجاً
أوحَــديًّا عليــه سيرُ الأنــام

يفتديها في مصر كل فقيـــهٍ
رائم بالقيـــاس أسمى مَــرام

يفقـــهُ النّص حينما يُصدر الفتـ
ــوَى أميناً في النقضِ والإبرام

لغـــةُ الضّـــاد ألبِستْ بكتاب
اللهِ أبهَى ما شَــفَّ من هنـــدام

عشــق الأزهـــر المبينُ فنـــون
القولِ فيها بخَــافق مُستهــام

ويحَ أعــلامِه الألى منحُـــوها
كلَّ ما يملـــكونه من حُطـــام

بذَلوا النورَ من عيونٍ كليلا
ت وضَحوْا بقوةِ الأجسامِ
درسُوا فنَّها اشتقاقا ونَحوا
وبيانا يُنيرُ وجهَ الكلام
إن ذكرتَ الخليلَ فى مسجدِ البصـ
ـرة فاذْكرْ بالأزهر ابن هشَام
قرنوهُ بسيبويه كِلا القطبين
يَرعى تُراثَه ويُحامى
لا لجاهٍ ومنصب بل لوجْهِ
اللهِ ما أعْربا من الإعجَام
خالِد خالد على الأيام إذْ
مضَى من تاريخِه ألفُ عَامِ
حفَلتْ بالخطوب تلْقَى من الأزهـ
ـر جُهدَ المناضِل البَسَّام
سُحُب غالتِ السَّنا وادلهَمَّتْ
مرْعِدات بكلِّ خطب جسَام
فسيُول التتارِ تغمرُ بغدا
دَ وجيشُ الصَّليب ملء الشَّامْ

وعيونُ المـــوحّدين تدجّـــت
لا تَـــرى النورَ فى مثـــارِ القتام
أينَ طِيب الأيمانِ يُسعف فى الرّوْ
عِ نفوســـا تهددت باجـــترام
صلصلَ الأزهـــرُ الشريف مرنّا
هاتِفـــا بالليـوثِ فى الآجَـام
وترامَى أشـــياخَه فى زُحُـوف
خلفَ عزّ الدين بنِ عبـد السّلام
يقرءونَ القرآن يُؤذن بالنصــرِ
ويَفْرِى فى الروع فَرْى الحُسام
يُرســلون السّهـام فى مهج الأ
عــداء خواضـــةً وراء السّهَام
يذكـرون الأمجـادَ من يوم بَدر
فتُوَجّ الذكرى أجيجَ الضرام
كُن شَهيـــدا كحَمزة لا تُسوّف
مُحجمـــا فالبلاءُ فى الإحجَـــام
خصمكَ المُعتـدى عليك فأقْـدم
كل نصـــر يُتـــاح بالاقـــدام

حُوصِرَ الهاجمون فاندحر البَغْى
وآل الهجومُ لاستسلامِ
وتَجَلّى السلام فانبعَث الأز
هرُ يرعى أشباله فى سَلام
أوغل الدارسون فى العلم لا يثنيهم
وعنه زُخرف الأوهام
فاذا الأزهَر الشريفُ شروح
تترامَى مثلَ السَّنا المُترامِى
فجواب يُتاح غب سؤال
وجَواب يُفضِى إلى استفهام
وصيال بالرأى رنَّ صَداه
كرنين التَّكبير بالإحرام
فاقرأ المَوسوعات فى مدِّها الزا
خر تشهد: نفائسَ الأفهَام
كلٌّ موسوعة بأجزائها العشـ
ـرين صُبحُ الأعشَى وبدرُ التِّمام
لا أوالى التقريظَ فالنَّاقدُ الصا
دِقُ قدْ يَنتحى شعاب السَّلام

رُبَّ متنٍ دهاهُ إيجازه الـمُكْـ
بشحٍّ يُفضى إلى الإبهامِ
رَفَدَتْه شُروحه وحواشيه
بفيض يتيحُ مَضْغَ الكلامِ
وتوالى المُعقبون عليهِ
يتبارون فى لَهيب حَمام
واستطالوا بالجنس والفصْلِ
والرسمِ وسلوا رماحهم لالتحام
ذاكَ عَهد مضى وأقبلَ عَهد
فاضَ فيه الأسلوبُ فيض الغمام
تجدُ القَول واضِحا كقوافى
الشِّعر تَمْضى فى رقّة وانسجام
تقرأ البابَ مثلما تقرأ القصَّةَ
ما بينَ بدئِها والخِتامِ !
إيه مهدَ الاباء يستشرفُ العـ
زّ ويأبَى معيشةَ المستضَام
أوحتّم " عليكَ فى كلّ عَصْر
صرعةُ البغى واندحارُ اللئّام ؟

تفجـــأ الهَـول راسخَ العزم صبّا
را وتَرمى حِمـــامَه بحِمـــام
حارَ نابليـونُ انتصـارا بأوربَّـــا
ولاقَى لديك شـــرَّ انهِـــزام
زأَر الأزهر الشـريفُ فهـــاجت
كالبراكـين ثائِـــراتُ الأنـــام
ماثَنَـــاها قذف القَنـــابل بل زَا
دَ لهيبَ النفـــوسِ بَرْح اضطرام
أَحرقوا الدورَ والمساجدَ لـــكنْ
أشعلوا فى الورى لظَى الانتِقام
وكما أقدموا بخِـزى تـــوارَوْا
وعليهم مـــذلةُ الإرغـــام
وتوالَى الزمانُ لا الفِـكرُ ساه
لا ولا العـينُ هوَّمَت فى منامِ
كلُّ جيـل يمضى ليخلف جيـــلا
مستطيلا بعِـزَّة الاســـلامِ
يبعثُ الأزهــر النجيبُ دارِكـــا
بهُمَــام يشدُّ أزر همـــام

خطباءُ المساجدِ اتَّخذوا المنـ
ـبَرَ أقْوى وسائِلِ الأعلام
رفعُوا الرّايةَ الشريفةَ لمّا
أسقطتْها صحافةُ الأقزام
تخذوا المنبر الحصينَ عرينا
جلْجلَتْ منه زأرة الضِّرغام
لن يملَّ الإمام منهم زئيرا
بدفْعِ التّائهين نحوَ الأمامِ

محمد رجب البيومى

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٢٣ ـ ٨٣

الترقيم الدولى ١ ـ ٠٢٣ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN



الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٢٢ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406. Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠مليما :

سوريا ٥٥٠ ق.س ، اديس ابابا ٥٠٠ سنتا ، لبنان ٥٥٠ ق.ل ، باريس ٨ فرنكات ، الاردن ٥٥٠ فلس، لندن ٨٠ بنس ، الكويت ٦٠٠ فلس، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، العراق ٦٠٠ فلس ، سويسرا ٤ فرنكات ، السعودية ٧ ريال ، أثينا ٥٠ دراخمة السودان ٦٠٠ مليما ، فيينا ٣٥ شلن ، تونس ١٠٠٠ مليم ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، الجزائر ١٠٠٠ سنتم ، استوكهولم ١٤ كرونة ، الخليج ٤٥٠ فلس ، كندا ٢٥٠ سنت ، غزة ٨٠ ليرة ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، الصومال ٥٠ بنى، نيويورك ٢٥٠ سنت ، داكار ٤٠٠ فرنكا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، لاجوس ٦٠ بنى ، استراليا ٣٠٠ سنتا ، آسمرة ٥٠٠ سنتا ، هولندا ٤ فلورين اليمن الشمالية ٥٠ بنى .

هـــذا الـكـتــاب

يصدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال مصر والعالم الاسلامى بالعيد الألفى للأزهر الشريف ، ليتحدث عن نضال الأزهر فى مكافحة الطغيان السياسى ، وتأييد الحرية الفكرية بأدله تاريخيــة مستمدة من أوثق المصادر ، وفى ضوء تحليل كاشف ، يبسط القضية ، ويناقش البرهان ٠

وقد تتبع ـ الكتاب ـ الحركات السياسية للأزهـــر فى مختلف عهوده ، فألمح الى جهود العلماء فى العصر المملوكى ، وبسط ما خفى من عراكهم فى العصر العثمانى ، وأرخ للحمـــلة الفرنسية فى ضوء ما قام به الازهر من مكافحة للغاصب ، كما صور دور الازهر فى اختيار حاكم جديد حين تولى محمد على أمر البــلاد بإرادة علماء الازهر ، مفصحا عن موقفهم منه ومن خلفائه حين استبدوا بالأمر ، وخرجوا على ارادة الأمة ، أما الثورتان المصريتان ثورة عـــرابى وثورة سعد زغلول فقد تحدث عنهما الكتاب مصورا جهد الأزهر فى جمع الكلمة ، وحشد الأمة ، ومناجزة المحتل مما يراه القارىء فى وضوح ٠

وفى المجال الفكرى ابرز الكتاب جهود الأزهر فى محاربة ما يمس الأصول الاسلامية من أفكار وافدة ، وكيف حمل راية الدفاع المخلص مستعينا بالرأى المدعم ، والدرس المستوعب ، ومستهزئا بمـــا ادعاه خصومه من تخرصات ، حتى بدت الحقائق ممحصة ، فاستنار الطريق ٠

ولم يغفل الكتاب دور الأزهر فى الدعـوة الى الســلام الدينى ، والتقاء الأديان على تعاون وصفاء ، ومنابذة الحروب المهلكة ، وتحريم الأسلحة الفتاكة صيانة للبشرية ، وحفظا لكرامة الانسان ٠٠٠ كل ذلك يجده القارىء سلسا سهلا فيما بين يديه من هذه الصفحات ٠

٣٥ قـــرشـــا